

الفصل الأول

في السماء وزينتها

أيقظني ليلة دواعي الهموم، فظرت نظرة في النجوم فإذا السماء كأنها روضة مزهرة، أو صرح كَسُّ
جواريه مسفرة، أو غدير تطفو عليه القواقع، أو بنفسج نور أقاحه لامع، أو مسح ألقى عليه دررٌ غواص،
أو ستر به لعين كل نجم وصواص، أو جمر في خلال رماد، أو كما قال من أجاد:
بساط زمرد نثرت عليه ... دنانير تحالطها دراهم
ونهر الحجر يجري في سندسها، ويسري ليسقي ذابل نرجسها، وباله من نهر صفا ماءه، وعقد على الأفق
لواؤه، ينقلب القلب إليه، ويقف طرف الطرف عليه، ويقبل نحوه الدبران، وينصب على شطه الميزان،
ويحوم حوله النسران، ويعوم فيه الحوت والسرطان
والثريا كأكرة أو كجام ... أو بنان أو طائر أو وشاح
أو باقة من نرجس، أو كأس يدار في المجلس، أو شمع يتوقد، أو شمس من عسجد، أو شذر منضود، أو كرم
أو عنقود، أو عقد لؤلؤ حسن الاتساق، أو أقراط خود ترتعد فرقا من الفراق:
وسهيل كوجنة الحب في اللو ... ن وقلب الحب في الخفقان
أو كمصباح تلعب به أيدي الرياح، أو ظمى يريد أن يرد، أو فارس في حمى الحمى مجتهد، أو مُشوق يتبع
الآثار، أو غريب لا يزور ولا يزار، أو غريق يدعي قوة السباحة، أو ماجد أنف من الذل فألف السباحة، أو
مغاضب يدعي فلا يجيب، أو محب يعض الطرف و يفتحه خوف الرقيب، والجوزاء النيرة كالشجرة المنورة:
كأنها منطقة من ذهب ... قد عقدت على قباء أزرق
والفرقدان الهاديان المرشدان:
كأنهما إلفان قال كلاهما ... لشخص أخيه: قل فإني سامع
والذراع يذرع شقة الأفق، والجبهة تسجد على مفارق الطرق، والعيوق يعوق عن السير إذا سار، والعوا
أعينها نشاوى قد تغشاها حمار، والسماك معتقل رحمة، والثرثرة منتظمة كالسبحة، والنعائم تحدوها النعامي،
وزهرة الزهرة تضيء بين الخزامى، وبهرام يُخجل البهرمان، والإكليل ليس يكل من مسابرة الأظعان،
والمقدم لا يتأخر عن الإعناق والإيجاف، والصرفة قد همت مع العسكر بالانصراف:
تمر بوادياً ليلاً وتطوى ... نهاراً مثل ما طوي الإزار
فكم بصقالها صدي البرايا ... وما يصدى لها أبداً غرار
فبينما أنا أسرح في درر الدراري نظري، وأروّض في رياضها جواد فكري. وأقدس من هي مسخرات بأمره،
وأنزّه من هدى خلقه بها في بره وبحره، إذ هب نسيم السحر يروي عن أهل نجد أطيب الخبر، فعطر الكون

بعرفه، وملك الرق برقته ولطفه، وأهدى الروح إلى الأرواح، وأطرب السمع بأحاديثه الصراح:
فهو حياة لكل حي ... كأن أنفاسه نفوس
فاستبشرت بوروده، وحصلت على الفائدة من وفوده، وسرّ بمناجاته سرّي، وقلت له والدموع تجري:
أعد ذكر من حل الغضا يا محدثي ... وإن أضرموه بالأضالع والصدر
ولا تنس سكان العقيق وإن هم ... على وجنتي أجرّوه في مدة الهجر
فلما أتمت الإنشاء، والانشاد وشرعت في طلب الإسعاف والإسعاد؛ تبسم الفجر ضاحكاً من شرقه،
ونصب أعلامه على منازل أفقه، فانطوى نشر الليل، وكف من غمره الذيل، وارتفعت الحجب، وتأججت
نار الشهب، واقتصص بازي الضوء غراب الظلام، وفضّ كافور النور عن الغسق مسك الختام:
وشرّد الصبح عنا الليل فاتضحت ... سطورهِ البيض في ألواحهِ السود
وفلت جيوش الدجا، وحرك النهار منه ما سجا، وجح جناحه إلى الرحيل، وتلا لسان حال التحويل: "
يقلب الله الليل والنهار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار "

الفصل الثاني

في الشمس والقمر

بكرت يوماً بعد أداء الفرض، أتفكر في خلق السموات والأرض، فلمحت المشرق بالنظر، وإذا قرن الغزاة
قد ظهر، كأنه جذوة نار، أو قطعة من دينار، أو كأس ستر بعضه بالحجاب، أو حسان غطت وجهها بنقاب،
ثم كشفت أستارها، وألقت على الأفق أنوارها، وبرزت كأنها كرة في ميدان، أو مجنّ دولاب ضمخ
بالزعران، أو مرآة لم تصقل ولم تطرق، أو وجه المليحة في حمار أزرق، أو سبيكة زجاج منتفخة الجوانب،
أو بؤدقة يحرك فيها ذهب ذائب.
وكأنها عند انبساط شعاعها ... تبر يذوب على فروع المشرق

فقلت أهلاً بالجرارية، التي في طلعتها ما يعني عن الجرارية، والعين التي تغار منها العين، والجنة التي وضح منها
الجبين، والسراج الوهاج التي تبرجت بها الأبراج، أنت المخصوصة بالشرف والرفعة، أنت واسطة عقد
الكواكب السبعة، أنت للحكمة برهان، وللفلك معيار وميزان، أنت الناطقة في صمتها، التي قصر البليغ
عن وصفها ونعته، أنت ملك مقدم، أنت النير الأعظم، أنت يوح التي تغدو في مصالح العالم وتروح، أنت
ذكاء التي ذكت نارها، أنت الضحى التي علا منارها، أنت الشمس، التي بما تعرف الأوقات الخمس، بك
ينشر الظل ويطوى، ويشتد النبات بعد ضعفه ويقوى، ويستدل على طريق الصواب، ويعلم عدد السنين
والحساب، لما سفرت رافلة في الحلال المعصرفة، حيث آية الليل وجعلت آية النهار مبصرة، وناهيك بما
منزلة، وحسبك أن صفاتك في الكتاب منزلة، ثم تمشت على بساطها وخطرت في وشيها ورباطها، وسبحت
في فلكتها مرشدة إلى الحقائق، مظهرة أسرار الساعات والدرج والدقائق.

تسمو إلى كبد السماء كأنها ... تبغي هناك دفاع أمر معضل
واستمرت سائرة يحدوها مر النسيم " والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ".
فلم يزل فكري يصاحبها، وطرفي يراها ويراقبها:
حتى إذا بلغت إلى حيث انتهت ... وقفت كواقفة سائل عن منزل
ثم انثنت تبغي الحدور كأنها ... طيرٌ هفا لمخافة من أجل
فلما حجبت عن العيون شخصها، وخطف المغرب من يد المشرق قرصها، واكتحلت جفون الأفق بالنار،
وطرد زنجي الليل رومي النهار، بزغ الهلال، بأمر ذي الجلال، كأنه قوس مونتور، أو زورق منحدر في بحر
الدجور، أو شطر سوار، أو منجل معد لحصاد الأعمار، أو خنجر مرهف النصلين، أو نون مرسومة الشافة:
الأصل من لجين، شفة كأس مائلة، أو مخلب عقاب صائلة، أو قطعة من قيد، أو فخ نصب للصيد، أو
حرف جيم، أو عرجون قديم، أو حاجب شيخ أدركه الشمط، أو نعل من حافر أدهم الدجا سقط، أو
ذباب سيف خرج من جفنه، أو راعع يعبد من لا يحدث أمر إلا ياذنه. وفي معناه من قصيدة
وترى الهلال يلوح في أفق السما ... يبدو كقوس بالمنى يرميني
أو شبه فخ أو كدملج عادة ... وكجانب المرأة العرجون
وجين حب بالعمامة قد زها ... وكوجه خود بالنقاب مصون
وكتاب فيل أو قلامة أمل ... وكورق وكحاجب مقرون
أو كالسوار أزيل منه البعض أو ... قريوس سرج مذهب أو نون
وكشافة الكأس المخبأ بعضه ... ضمن الشفاه ومنجل مسنون
هو منجل الأعمار للحصد الذي ... يُفني أولي التزين والتحسين
وإذا مضى سبع تراه كأنه ... نصف لتعويذ بدا لعيون
وإذا تكامل صار جاماً صافياً ... كأنه من لؤلؤ مكنون
أو عادة قد أسفرت عن وجهها ... غنيت عن التحسين والتزين
هذا هو المشهور في تشبيهه ... قدماً وذلك جمعه يكفيني
فقلت: مرحباً بمن ثياب مناوئه رثاث قر عيناً ستعود قمراً بعد ثلاث. ثم تصير بديراً، إن في ذلك لذكرى:
وإذا رأيت من الهلال نموه ... أيقنت أن سيكون بديراً كاملاً
أنت الزمهير الذي ليس له في نضارته نظير، أنت الزبرقان الذي له في كل شهر مهرجان. أيها القمر كم
محب طاب له فيك السمر، أيها الواضح الباهر، ما أنت إلا مثل سائر، أيها البدر الكامل، الذي فضله للبرية
شامل، لا تأس على ما فاتك من الدرج، ولا يكن في صدرك من الغزاة حرج:
فقد تحمد الشمس الصباح بضوئها ... تفاوتت الأنوار والكل رائق
منازلك معروفة، ومحاسنك موصوفة، وشرفك باذخ، وقدمك راسخ، وآياتك ظاهرة، وسفارتك سافرة،
وكم أوضحت من طريق، وهديت الرفيق إلى الفريق، وذكرت محبوباً محبوبه، وبلغت طالباً غاية مطلوبه،
أحسن بضوء ذبالتك وحسي مثلاً بهاتك، جعلك الباري في السموات نورا، وكان أمر الله قدرا

مقدورا. فسبحان من جلا بمحيك حنلس العسق، وأقسم بك في قوله: " والقمر إذا اتسق " ، قدرك أثيث
أثيل، ومحبك نبيه نبيل، ووجهك يابشينة الحسن جميل:

على رسل فما لك من مجار ... إلى رتب العلاء ولا رسيل
فتبارك أسم من ألبسكما أحسن الحر، وتعالى جد من جعلكما مصباحين لأهل النظر، ومن آياته الليل
والنهار والشمس والقمر.
ثم لم يبرح يسري وأنا لا أبرح، وينجلي وأنا أشاهد وجهه الأصبح، إلى أن غاب واختفى، وحسبنا الله
وكفى.

الفصل الثالث

في السحاب والمطر

إن الله تعالى حكم دائم النفوذ، وحكيم يهدي شفاء النجاة لمن به يلوذ. وله أسرار معناها دقيق، لا يفهمه
إلا أرباب التحقيق. أمسك الغيث عن عباده في عام، فحاض كل منهم في بحر دمه وعام. وساءت الظنون
بضن السحاب، واشتاق النبات إلى سماع وقع الرباب. وظممت الحياض، وعبست وجوه الرياض. واستدت
العيون بالنقع المثار، وتعطلت من حلى المزن أجياد الأزهار. وذهلت العقول لفقده الصوب عن الصواب،
وقص جناح السرور وطار الألباب. وطوي بساط الإنبساط ووقع القول في هياط ومياط. وطالت عهود
العهاد، وتأهبت الأرض للبس أثواب الحداد:

وأصابت نبت الربا فاصل عين شمس ... أورثته مذلة واصفرارا

كلما جال طرفها ترك النا ... س سكارى وما هم بسكارى

فبينما هم يجرون أذيال الكآبة، ويرفعون الدعاء إلى مواطن الإجابة، تداركهم الله بالطف الحفي، وانثال
عليهم المن الحفي، ونظر الله عليهم بعين حكمته، وحرك ساكن الرخاء لتنجري بنعمته، وهو الذي يرسل
الرياح بشرى بين يدي رحمته، فمدت أعناقها، وجددت إعناقها وركضت عادياتها، وجرت على أحسن
عادتها، وسدلت من أرديتها الأردن، وارتخت العنان في طلب العنان:

ورياح تبشر الأرض بالقطر ... كذيل الغلالة المبلول

ووجوه البقاع تنتظر الغيث ... انتظار الحب رد الرسول

فأقلت سحاباً ثقلاً، يستهل كرمًا ونوالاً، مشكي الإهاب، خصيب الجناب، فسيح الرحاب، صادق
الوعد، متلاحق الوفود، كثير الأعوان والجنود، يؤذن بالموارد الطامية، وشفاء الشفاه الطامية، وإثراء فقير
الثرى، وإجراء دمه أسفاً على ما جرى:

أكب على الآفاق إكباب مطرق ... يفكر، أو كالنادم الملتهف

ومد جناحيه إلى الأرض جانحاً ... وراح عليها كالغراب المرفرف

والرعد يزجره ويسوقه بين يديه، فإذا قصر صاح به وزجر عليه، تارة يترنم كالحمام، وطوراً يزار كالأسد
الضرغام:

وكأن صوت الرعد خلف سحابة ... حاد إذا ونت النجائب صاحاً
والبرق يلمع ويلمع، ويمنح ثم يمنح، كأنه نغر أشنب، أو قيس يلتهب، أو حسام يمان، أو فؤاد جبان، أو
سلاسل من ذهب، أو أشهب مال جله حين وثب أو أنامل بعض الحساب، أو حية تتلوى، أو كف خضيب
يمد ويقبض، أو خود تعرض بعد أن تتعرض:
تري الأرض منه وقد فضضت ... ووجه السماء وقد ذهباً

وقوس العمام للبحر نطق، لا بل تاج على مفارق الآفاق، يزهو بلجينه وعسجده، ويفخر بياقوته وزبرجده:
كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض
فلما تراكمت السحاب، واجتمعت حولها الكتائب، واتسع صدرها، واستحكمت أمرها، وحلق بالجو
ناهضها واعترض في الأفق عارضها، ونصبت راياتها، وانتهت غاياتها، وآن رحيلها وتفريق شملها، وحان
وضعها وفصال حملها، أجرت مدامعها، وردت ودائعها، وحلت نطاقها، وفكت أزرار أطواقها، وحثت
الركائب، وأسبلت الذوائب، وسمحت بطلها وطشها، وسكنت رهج الغبراء برشها، وأروت الحرة برداها
وهطلها، وأذهبت الحرقة بديمها ووبلها، وآثرت بجودها وجودها، ونثرت على بساط الأرض جواهر
عقودها. " أبو هلال العسكري " :

تحال بها مسكاً وبالقطر لؤلؤاً ... وبالروض ياقوتاً وبالوحد عنبراً
كم أبدت إحساناً وبراً، وبردت من كبد حرى، وأسدت معروفاً، وأغاثت ملهوفاً، وسأقت إنعاماً، وسقت
حرثاً وإنعاماً، وكفت همماً حين وكفت، وقرطت آذان الأغصان وشنفت، وأنشرت أمواتاً، وأخرجت حباً
ونباتاً، ونشرت مطراً بعد الطي " وجعلنا من الماء كل شيء حي " وكم نفعت غليلاً، ونفعت عليلاً، وملاّت
حياضاً، ونورت رياضاً، وأذلت دراً مصوناً، وشرحت صدوراً، وأقرت عيوناً، وألبست الحدائق بروداً
عليها طلاوة، وأهدت للزهر قطراً ظاهر الخلاوة:

تري فواقعه في الأرض لائحة ... مثل الدراهم تبدو ثم تستتر

فأمسى الناس في عيشة راضية، يرفلون في حلل الرفاهية، أمرعوا بعد الضنك والشظف، وأخصبوا بعد
الجدب والطفف، وأصبح محل الخل دارساً، ووجه الأمل يضحك بعد أن كان عابساً، وأخذت الأرض
زخرفها بعد أن كان زرعها يهيج، واهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فتنغورها مبتسمة، وفراقد
قلائدها منتظمة، وغمارقها مدبجة، ورؤوس أشجارها متوجة، وغدرانها طافحة، ومخايل السعادة عليها لائحة،
وألسنة أهلها مشغلة بشكر علام الغيوب، وقلوبهم مطمئنة بذكره " ألا بذكر الله تطمئن القلوب " .
يبدىء ويعيد، ويمتحن العبيد، ثم يفتح لهم أبواب جوده الوافر وفضله المديد. " وهو الذي ينزل الغيث من
بعد ما قطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد " .

الفصل الرابع

في الليل والنهار

أرقت ذات ليلة في مهادي، فسمعت طارقاً ينادي في النادي " عتاب بن ورقاء الشاعر " :
إن الليالي للأنام مناهل ... تطوي وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطواهن مع السرور قصار
فقمتم من مضجعي، وقد بل ردي مدمعي، متحيراً في أمري، متأسفاً على ما فات من عمري، وقلت: أيها
الطارق في ظلمة الليل العاسق، هل لك في المنادمة؟ فقال: كم نديم سفك المنى، دمه ثم سلم وجلس، وما
تنفس وما نس. فقلت: يا من شنف السمع بذكره، اذكر لي شيئاً في طول الليل وقصره. فقال:
وليل كواكبه لا تسير ... ولا هو منها يطبق البراحا
كيوم القيامة في طوله ... على من يراقب فيه الصباحا
مقيم ليس يبرح، وعاجز لا يظعن ولا ينزح، برد نجومه لا يذوب وغائب ضوئه ليس يؤوب، لا يبلى جديد
مسحه، ولا يجنح إلى الحركة ساكن جناحه، عليه ما يرجي صلاحه، وصباحه، لا يلوح مصباحه، قطع
الطريق على السحر، وعذب أجفان الحبين بالسهر:
حدثوني عن النهار حديثاً ... أو صفوه، فقد نسيت النهارا
كأنه صريع راح، أو طائر مقصوص الجناح، أو أسير يخطب في قيده، أو بحر منع الجزر عن مده، أو كسير
ليس له على النهوض اقتدار، أو ضيرير يئس طرفه من رؤية النهار:
أو هائم غمر بقطع الفلا ... قد حار لا يلدي بمن يهتدي؟
أو جيش زنج بالثرى قد ثوى ... أو دارة حيث انتهت تبتي
واعلم أيها البصير الناقد، أنه يطول على المهجور الفاقد، ويقصر على المسرور الراقد " أبو سام رحمه الله " :
ليلي كما شاءت فإن لم تزر ... طال، وإن زارت فيليلي قصير
فقلت: إيه أيها الإمام، أسمعني شيئاً في وصف الأيام. فقال " ابن الرومي رحمه الله " :
لله أيام تقضت لنا ... ما كان أحلاها وأهناها
مرت فلم يبق لنا بعدها ... شيء سوى أن نتمناها
حيث الوقت معين، دماء الشبية معين، ونشر البشر فائح، ونور الهناء لائح، والحبيب مجيب، والرقيب غير
قريب، وغصن الصبار طيب، ومطرف اللهو قشيب، والعيش غض والدهر غضيض الطرف، وسعاد السعد
ممنوعة من الصرف:
والشمل مجتمع، والجمع مشتمل ... على الجميل وحسن الخلق والخلق
أيا أخوا الأدب، إلى كم ذا الحرص والدأب، الأيام نجمها غرار، ومدعي الوفاء منها غدار، كثيرة الملل،
سريعة الزوال، تفرق الحباب، وتسترجع المواهب، ذمامها ذميم ومسالمها سليم. تحل العقود، ولا تحفظ
العهود، تكدر الصافي من الشراب، وتعد الظامىء بورود السراب، لقد سقط من تمسك بعراها، وتعب من
قصد الراحة من ذراها. قال التهامي رحمه الله تعالى:

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار
ثم قال: مضت الجهممة والشفق، والفحمة والغسق والقطع والسدفة، والبهرة والزلفة وآن لسلمات السحر
أن تتبختر، ولعيون الفجر أن تتفجر. وقام للوداع، قتلتي زودني بأنعم المتاع.
فقال: دع إزار الأوزار، واتق من لا تدركه الأبصار، وسبحه بالعشي والإبكار " وهو الذي يتوفاكم بالليل
ويعلم ما جرحتم بالنهار " .

الفصل الخامس

في أقسام العام

حضر فصول العام مجلس الأدب في يوم بلغ منه الأرب نهاية الأدب، بمشهد من ذوي البلاغة، ومتقني
صناعة الصياغة. فقام كل منهم يعرب عن نفسه، ويفتخر على أبناء جنسه، فقال الربيع:

أنا شاب الزمان، وروح الحيوان، وإنسان عين الإنسان، أما حياة النفوس، وزينة عروس الغروس، ونزهة
الأبصار، ومنطق الأطيبار. عرف أوقاتي ناسم، وأيامي أعياد ومواسم، فيها يظهر النبات، وتنشر الأموات،
وترد الودائع، وتتحرك الطباع، ويمرح جنيب الجنوب، وينزح وجيب القلوب، وتفيض عيون الأنهار،
ويعتدل الليل والنهار. كم لي عقد منظوم، وطرز وشي مرقوم، وحلة فاخرة، وحلية ظاهرة، ونجم سعد
يدي راعيه من الأمل، وشمس حسن تنشدا بأبعد ما بين برج الجدي والحمل. عساكري منصوره، وأسلحتي
مشهورة: فمن سيف غصن مجوهر، ودرع بنفسج مشهور، ومغفر شقيق أحمر، وترس بمار يبهر، وسهم آس
يرشق فينشق ورمح سوسن سنانه أزرق، تحرسها آيات، وتكنفها ألوية ورايات. بي تحمر من الورد حدوده،
وتهتر من البان قدوده، ويخضر عذار الريحان، وينتبه من النرجس طرفه الوسنان، وتخرج الخبايا من الزوايا،
ويفتخر ثغر الأقحوان قائلاً: " أنا ابن جلا وطلاع الثنايا " :

إن هذا الربيع شيء عجيب ... تضحك الأرض من بكاء السماء

ذهب حيثما ذهبنا ودر ... حيث درنا وفضة في الفضاء

وقال الصيف: أنا الخل الموافق، والصديق الصادق، والطيب الحاذق. أجتهد في مصلحة الأصحاب وأرفع
عنهم كلفة حمل الثياب، وأخفف أثقالمهم، وأوفر أموالهم، وأكفيهم المؤونة وأجزل لهم المعونة، وأغنيهم عن
شراء الفراء، وأحقق عندهم أن كل الصيد في جوف الفراء، نصرت بالصبا، وأوتيت الحكمة في زمن الصبا.
بي تتضح الجادة، وتنضح من الفواكة المادة، ويزهو البسر والرطب، وينصلح مزاج العنب، ويقوى قلب
النور، ويلين عطف التين والموز، وينعقد حب الرمان، فيقمع الصفراء ويسكن الخفقان، وتخضب وجنات
النجاح ويذهب عرف السفرجل مع هبوب الرياح، وتسود عيون الزيتون، وتخلق تيجان النارج والليمون،
مواعدي منقودة، وموائدي ممدودة. الخير موجود في مقامي، والرزق مقسوم في أيامي. الفقير ينصاع بملء
مده وصاعه، والغني يرتع في ربع ملكه وأقطاعه. والوحش تأتي زرافات ووحدانا، والطير تغدو حماساً

وتروح بطانا.

" ابن حبيب رحمه الله تعالى " :

مصيف له ظل مديد على الورى ... ومن حلا طعماً وحلل أخلاطا

يعالج أنواع الفواكه مبدياً ... لصحتها حفظاً يعجز بقراطا

وقال الخريف: أنا سائق الغيوم، وكاسر جيش الغيوم، وهازم أحزاب السموم، وحادي نجائب السحاب، وحاسر نقاب المناقب. أنا أصد الصدى وأجود بالندى، وأظهر كل معنى جلي، وأسمو بالوسمي والولي، في أيامي تقطف الثمار وتصفو الأثمار من الأكدار، ويتفرق دمع العيون، ويتلون ورق الغصون، طوراً يحاكي البقم وتارة يشبه الأرقم، وحيناً يبدو في حلته الذهبية، فينجذب إلى خلته القلوب الأبية. وفيها يكفى الناس هم الهوام، ويتساوى في لذة الماء الخاص العام، وتقدم الأطيوار مطربة بنشيشها، رافلة في الملابس المحددة من ريشها، وتعصف بنت العنقود، وتوثق في سجن الدن بالقيود، على أنها لم تجترح إنثاً، ولم تعاقب إلا عدواناً وظلماً. بي تطيب الأوقات، وتحصل اللذات، وترق النسومات وترمى حصى الجمرات، وتسكن حرارة القلوب، وتكثر أنواع المطموم والمشروب. كم لي من شجرة أكلها دائم، وحملها للنفع المتعدي لازم، وورقها على الدوام غير زائل، وقدود أغصانها تنجل كل رمح ذابل " ابن حبيب رحمه الله " .

إن فصل الخريف وافى إلينا ... يتهادى في حلة كالعروس

غيره كان للعيون ربيعاً ... وهو ما بيننا ربيع النفوس

وقال الشتاء: أنا شيخ الجماعة، ورب البضاعة، والمقابل بالسمع والطاعة. أجمع شمل الأصحاب وأسدل عليهم الحجاب، وأتحفهم بالطعام والشراب. ومن ليس له بي طاقة أخلق من دونه الباب. أميل إلى المطيع، القادر المستطيع، المعتضد بالبرود والفرا المستمسك من الدثار بأوثق العرا، المرتقب قدومي وموافاتي، المتأهب للسبعة المشهورة من كفاقي. ومن يعش عن ذكري ولم يمتثل أمري، أرجفته بصوت الرعد، وأنجرت له من سيف البرق صادق الوعد، وسرت إليه بعساكر السحاب، ولم أقنع من الغنيمة بالإياب. معروف معروف، ونيل نيلي موصوف، وثمار إحساني دانية القطوف. كم لي من وابل طويل المدى وجود وافر الجدا، وقطر حلا مذاقه، وغيث قيد العفاة إطلاقه، وديمة تطرب السمع بصوتها، وحيما يحيي الأرض بعد موتها، أيامي وجيزة، وأوقاتي عزيزة، ومجالسي معمورة بذوي السيادة، مغمورة بالخير والمير والسعادة. نقلها يأتي من أنواعه بالعجب، ومناقلها تسمح بذهب اللهب، وراحتها تعش الأرواح، وسقاها بجفونهم السقيمة تفتن العقول الصحاح. إن ردتها وجدت مالا ممدودا، وإن زرتها شاهدت لها بنين شهودا:

وإذا رميت بفضل كاسك في الهوى ... عادت عليك من الدقيق عقودا

يا صاحب العودين لا تملهما ... حرك لنا عوداً وحرقت عودا

فلما نظم كل منهم سلك مقاله، وفرغ من الكلام على شرح حاله، أخذ الجماعة من الطرف ما يأخذ السكر، وتجادبوا أطراف الثناء والشكر، وظهرت أسرار السرور، وأنشرت صدور الصدور، وهبت قبول الإقبال، وأنشد لسان الحال:

وماذا يعيب المرء في مدح نفسه ... إذا لم يكن في قوله بكذب؟
ثم انفض المجلس وحل النطاق، وتفرق شمل أهله وآخر الصحبة الفراق.

الفصل السادس

في البحر والنهر

هزنتي رياح الأمل البسيط، إلى امتطاء ثبج البحر الخيط. فأتيت سفينة يطيب للسفر مثواها، وركبت فيها " بسم الله مجراها ومرساها " ، موقناً بأن المقدور صائر، معرضاً عن قول الشاعر:

لا أركب البحر أخشى ... علي منه المعاطب

طين أنا وهو ماء ... والطين في الماء ذائب

يا لها سفينة، على الأموال أمينة، ذات دسر وألواح، تجري مع الرياح، وتطير بغير جناح، وتعتاض عن الحادي بالملاح. تخوض وتلعب، وترد ولا تشرب. لها قلاع كالقلاع وشراع يحجب الشعاع، وسكينة وسكان ومكانة وإمكان، وجؤجؤ وفقار، وأضلاع محكمة بالقار وجسم عار من الفؤاد، وهو في عين الماء بمنزلة السواد، بعيدة ما بين السحر والنحر، من أحسن الجواري المنشآت في البحر. معقود بنواصيها الخير كالحليل لا تمل من سير النهار ولا من سرى الليل:

ما رأى الناس من قصور على الماء ... سواها تسير سير القداح

كأنها وعل ينحط من شاهق، أو عرياض سابق يحته سائق، أو عقرب شائلة، أو عقاب صائلة. أو غراب أعصم، أو تمساح أو أرقم، أو ظليم نقر في الظلام، أو جواد فر مستكفاً من صحبة الأنام. حاكمها عادل في حكمه، عارف بقض أمرها وبرمه، يهتدي بالنجوم، ويتدىء باسم الحي القيوم، يبرز من نواتيها في جنود، يشمل إحسانهم أهلها أيقاظاً وهم رقود. يتأنفون فيما يعمرن، ويفعلون ما يؤمرون:

يكثرن الصياح حتى كأن الس ... فن تجري من خوف ذاك الصياح

فبينما نحن من البحر في قاموسه، كتب الجو حروف الغيم في طروسه، وثار ربح عاصف، يتبعها رعد قاصف. فمالت بنا الفلك واضطربت، ودنت شفيتها من رشف الماء واقتربت، واستمرت ترفع وتخفض، وتقرب وترفض، وتعلو على الأوتاد، وتقيم في كل واد، وتحوم وتحول، وتجود وتحول، وتضرم في الكبود نار ناجر، إلى أن بلغت القلوب الحناجر:

ألا فارجع واخشه إنه ... هو البحر فيه الغنى والغرق

ثم نظر إلينا من لا تحفى عليه السرائر، وأمر الجارية بحمل العبيد إلى بعض الجزائر، فلم ندر إلا ونحن تجاه جزيرة، تسر النفوس بحاسنها الغزيرة، فالتحدرت ماضياً إلى بينها، نائياً عن السفينة وساكنيها، فوجدتها محضرة الأفنان، محضلة الكشبان، بما من الياقوت ما يرجع خاسئاً مناويه، ومن الأشجار ما يحمل القواكه والأفاويه. وبين رياضها نمر شديد الخصر، أرضه ذهب وحصباؤه درر، وأمواجه عكن و داراته سرر:

عذب إذا ما عب منه ناهل ... فكأنه من ريق خود ينهل

لين الأديم، مزاجه من تسنيم، يصقله الصبا ويفرجه النسيم، فكأنه دروع موضونة، أو مبارد مسنونة، أو دمع يتسلسل، أو أفاع تملل، أو ذوب فضة يسيل، أو صفحة سيف صقيل، أو لوح بلور مرقوم، أو رحيق بالمسك مخنوم:

وكان الطيور إذ وردته ... من صفاء به تزق فراخا
إن مالت إليه الغصون فالشخوص ترقص في الخيال، وإن كرت منه الطباء فالغيد يرشفن من ثغور أترابن
الزلال. وإن أشرفت عليه النجوم خلت القلك يدور في أرجائه، وإن تجلى له البدر حسبته قلباً خافقاً بين
أحشائه. قال " مؤيد الدين الطغراني " :

والشمس إن وافته رآد الضحى ... حسناء في مرآته ناظره
أتمودج الماء الذي جاءنا ال ... وعد بأن نسقاه في الآخرة
فليث فيها مدة، مفكراً فيما رأيت من الفرج بعد الشدة، مؤمناً بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، واقفاً
على شكر من تجري القلك في البحر بأمره:
ربما تجزع النفوس لأمر ... ولها فرجة كحل العقال
ولم أزل بها في أحسن حال، وأرغد عيش وأنعم بال، إلى أن حرك الله مني ما كان ساكناً، وأدخلني مصر
بمشيئته آمناً.

الفصل السابع

في المعقل والدار

عرض لي فكر آثار العزيمة، إلى مشاهدة الآثار القديمة، فأعددت الزاد، وسرت أجوب البلاد، وأصل العنق
بالوحد و الزميل و أكتحل من إثم الفلاة بميل بعد ميل. فبينما أنا أترامى لنيل المرام، لاح لي بناء على أيهم
خشام فتوجهت مسرعاً للوقوف عليه، واجتهدت إلى أن توصلت إليه، فرأيت معقلاً يسبي العقول، ويجر
على السحاب فضل الذبول، رفيع النرا رحيب النرا رأسه فوق الثريا، وأسه تحت الثرى، صهوته عالية و
ثغوره حالية، ومهور عرائسه غالية، الجوزاء لخصره منطقة و الزهرة في أذنه كالشنف معلقة، يباهي الأفلاك
ويسمو إلى السماك، وبعلو على الزواهر، ويخجل الشمس بنوره الباهر، ويعوق العيوق، و ينادم القمر عند
الصبح والغبوق:

إذا ما سرى برق بدا من خلاله ... كما لاحت العذراء من خلل الحجب
سوره منعطف كالسوار، و أبراجه تدهش بتبريجها الأبصار، وشرافته تلمع كالمشرفية، وخبايا صياصيه عن
الأوهام خفية. ممنعة مصادره و موارد، متسعة معالمة و معاهده، لا يرى الوعل أعلى طوره، ولا يبلغ الطرف
منتهاه لعجزه و قصوره، عروقه مؤتررة بالتخوم، و فروعه متوجة بالنجوم، و بنيانه مرصوص، و خواتمه
مرصعة بجواهر الفصوص، لا يتصل الفناء بفنائه، وتظهر العزة على من يرجو تملك أرجائه. عقوده
محكمة، وأحجاره مهندمة، وأركانه مشيدة، وملابسه مع القدم جديدة، وقواعده مرفوعة، وأقوال ديكتته في

السماء مسموعة.

له عقاب عقاب الجو حائمة ... من فوقها فهي تخفى في خوافيها

وبوسطه دار دار بما فلك السعود، وأورق لطالب كثرها عود الوعود، وسحت عيون ساحتها ورفع في العقار فرش عقرها وباحتها، وتوقفت الكواكب لمراقبة عجائبها وغرائبها، وسال لعاب الشمس من الحيرة في ملاعبها. أنيقة المباني، مأهولة بأهلة المعاني، تنشرح الصدور في قاعاتها وبقاعها، وتخبر محاسنها بصنائع أهلها وحذق صناعتها:

إذا فتحت أبوابها خلت أنها ... تقول بترحيب لداخلها: أهلاً

رحبة الأكفاف، بديعة الأوصاف، تذل على أنها كانت منزل الأشراف، ومقر قرى الأضياف، ومقعد الوفود، ومحل الكرم والجود. تحار الأعين في وشي أزاهيرها، وتقصر الألسن عن تقريظ مقاصيرها. مياه برکہا غزيرة، وجدرانها بالتمكين جديرة، وأشجارها لم تزل مورقة مثمرة، ولياليها لا تبرح بالسنا على مر السنين مقمرة:

تتقابل الأنوار في جنباتها ... فالليل فيها كالنهار المشمس

كم بما من صدر مجلس مشروح، وسقف مرفوع وباب مفتوح، وهو بالبهاء تراه أثرى، وإيوان يكسر بسهام قوسه جيش إيوان كسرى، وحدائق لم تنبت بالتراب، ولا جادتها أيدي السحاب، وتصاوير تحرك العارف بسكونها، وتفتن الأبواب بحمرة حدودها وسواد عيونها، وتبعث الخواطر بمعانيها ومغانيها، ويكاد ماء الذهب يقطر من أعاليها، قد جل عن الترخيم رخامها، وتوفرت من المحاسن أقسامها، وابتضت وجوه ممرها، وزادت بهجة جباهها وطورها، وتخلقت أثواب ساجها واجتمع شمل أبوسها وعاجها، وعلت رتبة أرائكها، وغلت قيمة سباتكها، فلو ساجلها الروض لذهب مع الرياح عرفه ولو كحل بنورها الأعمى لارتد إليه طرفه:

ديار عليها من بشاشة أهلها ... بقايا تسر النفس أنساً ومنظراً

فلما أحاط علمي بغوره ونجده، وبلغ رائد فكري منه غاية قصده، أدخلته في زمرة عقائل المعادل، ونظمتة في سلك ما أتكلم عليه في الخافل، وسألته عن بانيه وساكنيه فلم يجب. ثم قال بلسان الحال: كل منهم بغمام الرغام قد حجب. فحققت أن الدهر يديل كل مصون، وتلوث: " كم تركوا من جنات وعيون " وخرجت منه معتبراً، وظلت في طريقي متذكراً:

قلت يوماً لدار قوم تناءوا ... أين سكانك الكرام لدينا؟

فأجابت هنا أقاموا قليلاً ... ثم ساروا، ولست أعلم أيننا؟

الفصل الثامن

في الأشجار والثمار

لما صدئت مرآة الجنان، قصدت لجلائها الجنان، فطرقت الباب فقيل: من؟ فقلت: فتى لا يدري من له فتن؟
ففتح الوصيد ودنا المراد من المرید، فدخلت إليها، وما كدت أن أقدم عليها. فإذا جنة عالية، فطوفها دانية،
وظلحها منضود، وظلها ممدود، وأعلام أشجارها مرفوعة، وفاكهتها كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة.

ربيع الربيع بما فحالت كفه ... حلاًلاً بما عقد الهموم يحلل

تجوس المياه خلال ديارها، وتشرق بآفاقها أنوار نوارها، وتحقق الحدق بفنون أفنانها، وتغني الورق على
عيدها، وتميد أدواحها على مذهب الأنماط، وتميس من الحلبي في أحلى الشنوف والأقراط:

كأن غصونها سقيت رحيقاً ... فمالت مثل شراب الرحيق

نزهة النواظر، وشرك الخواطر. كم لرقيق نسيمها من رقيق، قلبه مقيد ودمعه طليق، بما الأشجار لا
تحصى، وثمار لا تعد ولا تستقصى، فمنها نخيل، متحفها غير بخيل، جماره:

جسم لطيف اللمس لكنه ... قد لف في ثوب من الصوف

وظلعه:

كصدر فتاة ناهد شق قلبها ... سماع فشقت عنه ثوباً ممسكا

وبلحه:

مكاحل من زمرد خرطت ... مقمعات الرؤوس بالذهب

وبُسره:

كأنما خوصه عليه ... زبرجد مثمر عقيقاً

ورطبه:

إهليلج من لجين ... مسمر بالنضار

وقمره:

يشف مثل كؤوس ... مملوءة من عُقار

وكروم كريمة، منافعها عميمة:

كأنما عنقودها ... زنج جنوا في سرقة

فأصبحت رؤوسهم ... على الذرا معلقة

أو الثريا عند الصباح، أو أوعية نور ملئت من الراح:

كم درة فيها وكم جزعة ... صحيحة التدوير لم تنقب

وتفاح سرى نشره وفاح، كأنه خمر جم، أو جمر ما حمد، أو در جمع معه ياقوت، أو وجنة من هي للقلوب
في الدنيا قوت، نصفه من بمار، ونصفه من جلنار:

كأن الهوى قد ضم من بعد فرقة ... به خد معشوق إلى خد عاشق

وسفرجل جل قدراً، وأطلع من زهره زهراً:

يحكي نهود الغايات وتحتها ... سرر لمن حشين مسكاً أذفرا

ينوب طعمه عن الراح، ويهدي عطر الخود الرراح:

له ريح محبوب وقسوة قلبه ... ولون محب حلة السقم قد كسي
وموز من نصار، كأنه أنياب فيلة صغار، أو طفل قماطه معصفر، أولفات زبد عجنت بسكر:
أو مغرم أنحله وصفره ... بعد الذي بوصله ما ظفره
وتين ممزق الجلباب، كدر القشر صافي اللباب:
كأنه رب نعمة سلبت ... فعاد بعد الحديد في خلق
ورمان بديع النظام، ييسم عن مثل حب الغمام، كأنه نهود الحسان، أو حقاق صندل حشيت بالمرجان:
حقاق كأمثال الكرات تضمنت ... شذور عقيق في غشاء حرير
في شجره جلنار أشرق وأنار:
يحكي فصوص بلخش ... في قبة من زبرجد
وإحاص أسود العين، لا يعتريه شيب ولا شين، كأنه كرات من العبر، أو طليعة من الزنج تنتظر العسكر:
وإذا ما قشرته ففصوص ... صبغتها بمائها الظلماء
وخوخ ذو لونين، في بياضه وحمرة جلاء للعين:
كوجنة غادة خافت رقيقاً ... فغطتها بمحمر البنان
وكمشرى لطيف الذات، حسن الصفات، في غاية اللطف والرفقة، يذوب من الراحة ولا يحمل المشقة:
كأنه في شكله ولونه ... وطعمه قوالب من سكر
ومشمش تقمص بالشفق، وتدرع بالورق، ككرات من العقيان، أو بنادق ضمخت بالزعفران:
و كأنما الأفلاك من طرب به ... نثرت كواكبها على الأغصان
وتوت حمري اللون، ليس له صبر على الصون مزمل بدمائه، لم يبق فيه غير ذمائه:
يكاد بأن يفنى إذا ما لمستته ... فأرحمه من سائر الثمرات
وعناب نقبي الإهاب، كأنه قلوب الأطيبار، أو خرز ركب من النصار:
أقراط ياقوت تحركها الصبا ... أو أمل بالأرجوان مطرقة
وفستق شريق كأنه عند التحقيق والتحديق:
زبرجدة ملفوفة في حريرة ... مضمنة درأ مغشى بياقوت
أو مسرور تبسم، أو مأسور فتح فاه ليتكلم:
والقلب ما بين قشره يلوح لنا ... كألسن الطير، من بين المناقير
ولوز قلبوه مؤتلفة، وأثوابه مختلفة، لطيف المعاني، له بها جنة من الجاني كأنه خز بزه رفيع، أو عذار جديد
شرط الخليع:
أو سندس أخضر من تحته صدف ... أحسن به صدفاً في ضمنه درر
وجوز جسمه من العرعر، وقميصه من الزمرد الأخضر، صحيح التدوير، يسقط على الخبارلا على الخير:
والجوز مقشور يروق كأنه ... لوناً وشكلاً مصطكى ممزوج

وصنوبر يقري الضيف، لا يعرف رحلة الشتاء والصيف، كأنه طيور على ذرا القصب، أو كافور ضمخ
بالمسك المنتخب:

عقد لآل مشرق لونه ... في جوف أذراع من العود
وأترج حسن ذرعاً وزرعاً، وطاب أصلاً وفرعاً، فيه روح وريحان، وهو للأغصان بمنزلة التيجان:
أباريق من الذهب المصفى ... وقد سقطت عراها بالعراء
ونارنج بهيج، طيب زهره أريج، كأنه مصاييح، قمرها أيدي الريح، أو عذراء صبغت بالورس إزارها، أو
وجنه عاشق أضرم الوجد نارها:

أو جذوة حملتها كف قابسها ... لكنها جذوة معدومة اللهب
وليمون كأنه بنادق من لجن، أودعت غلفاً من العين مخافة العين:
يشبهه بيض الدجاج وقد ... لطحه العابت بالزعران
وزيتون شجرته ميمونة، وأسرار أنواره مكنونة:

بدا لنا كأعين ... شهل وذات دعج

مخضره زبرجد ... مسوده من سيج

وخرنوب كقرن ظبي معطوف، أو هلال عاجله الخسوف:

وكأنه مذ لاح في أوراقه ... أصداف در ضمنها مرجان

ونبق جلبابه معصفر كأنه كهربا أصفر:

أو عدة من شنوف ... قد علقت بالغصون

وزعرور كالياقوت، مسك نكهته مفتوت:

جلجل مخضوبة عندما ... أو خرز أحرطت من عقيق

وبأرضها الباقلاء الذي فاح نشره، وصدق خَبْر خُبْره يبرز له من الكمائم، نور يحكي بلق الحمائم، كأنه

لؤلؤ يقق، متلفع بمروط السرقة أو خواتم من فضة، أو محالب جوارح منقضة:

فصوص زمرد في غلف در ... بأقماع حكمت تقلم ظفر

والخشخاش الذي تضيء بنوره الأغباش. أعلام تميل مع الرياح، أو أكاليل على رؤوس الرماح:

حلبى تضم أطيافاً إذا درجوا ... رأيت شملهم المنظوم منشورا

والكتان الذي رقت حواشي شققه وراقت محاسن أخضره وأزرقه، وامتدت رباطه وحبره، وتبلبت أصداغه

وطُره:

إذا درجت فيه الرياح تتابعت ... ذوائبه حتى يقال غدِير

وفيها من النبات ما يطول إليه بناني، ويقصر عن حصر وصف بعضه لساني. يسقى بماء واحد، ويطل قول

المعترض والجاحد، ولعمري لقد بلغتني ما أملت من جلاء قلبي المعمود، وأذكرتني ما لم أكن ناسياً من فنائها

وبقاء جنة الخلود، فإنها - وإن طاب جناها، وأوقفت النفوس على حلي من سناها - مؤذنة بالتلاشي

والرحيل، " قل متاع الدنيا قليل " .

فلما قضيت منها وطري ثبيت عنها عنان نظري، ومضيت ذاكراً محاسن صفتها و موصوفها، شاكراً سرو
سرورها و عرف معروفها:

وعندراً فإني في الشاء مقصر ... وقولي بالتقصير يبسط لي عذرا

الفصل التاسع

في الروض والأزهار

جد بي الوجد في إبان الربيع، إلى رؤية الغيث بمنازل الربيع. فسرت أحلق في جوانب الحدائق، وصحبي من
الشوق وسائق، يتلوهم حاد وسائق. فإذا أنا بروضة أريضة، عيون أزهارها مريضة، قد فاح أرجها،
وأضأت سرجها، وبرز إبريزها، وحسن تطريزها، وأبدت من زينتها ما هو باللطف منعوت، ونثرت على
الزمرد أصناف الدر والياقوت، وتحلت بما يروق إنسان كل إنسان وتجلت في رفرف خضر وعبقري حسان،
أعلن السحاب أسرارها وهتك النسيم أستارها:
كأن تفتحها بالضحي ... عذارى تحلل أزرارها
حكمت الخنساء لا في الحزن بل في الحسن والفخر. ولها عيون تجري على الديباج لا على الصخر، يضوع
عرفها في الآفاق ولا يضيع، ويبهز الطرف من صنع صنائعها كل زهر رفيع. تنهار جداؤها وأثمارها،
ويضحك في وجه من أم بابها وأملها، ثغر نوارها:
وما غربت نجوم الليل لكن ... نقلن من السماء إلى الرياض
فمن ورد أحمر الإهاب، عندي الخضاب:
كالشمس شكلاً ونشر المسك رائحة ... واللؤلؤ الرطب في تفرجه عرق
ملك جليل، مخصوص بالتبجيل، رفيع الجناح، خفيف الركاب. الرياحين جنده، والشوك سنانه وسلاحه،
والعقبان والمرجان قلبه وجناحه:
مداهن من يواقيت مركبة ... على الزبرجد في أجوافها ذهب
ومنه الأبيض المذهب المفضض:
كأن وجوهه لما توافت ... بدور في مطالعها سعود
بياض في جوانبه احمرار ... كما احمرت من الخجل الحدود
ومن نرجس باسم، عرفه ناسم:
كأما صفرته ... على بياض يقق
أعشار جزء ذهبت ... من ورق في ورق
له عيون هديها من لجين، وحدقها من خالص العين، قامت من الزبرجد على ساق، فهامت بها قلوب
العشاق:

وأحسن ما في الوجوه العيون ... وأشبه الشيء بها النرجس
ومن يسمين يجلو البصر، كأنه أقراط من الدرر، يحفظ الدمام، ولا يميل من طول المقام. شعوره ضاحكة،
وحسنه آمن من المشاركة:

والطرق الحمر في جوانبه ... كخذ عذراء مسه عض
ومن نسرين، جوهر عقده ثمين، درر على زبرجد، أو حقاق ورق فيها برادة عسجد:
ما إن رأينا قط من قبله ... زمرداً يثمر بلورا
ومن خلاف، ليس في طيب عرفه خلاف، حكي القدود بهتزازه، ويصل وعده بانجازه. كأنه مثل من الراح
وهو يومئ برأسه نحوه، وكأن غصونه أحست برحلة الشتاء، فقلبت فروها:
والبان تحسبه سنانياً رأت ... بعض الكلاب فنفتت أذناها
ومن بنفسج حسن لباسه، وطابت انفاسه:
كأنه وضعاف القضب تحمله ... أوائل النار في أطراف كبريت
وفصوص فيروزج نضيدة، أو آثار قرص بخد خريدة، أو حروف لازوردية، أو بقايا قمش في راحة ندية:
أو أعين زرق كحلن بأثمد
ومن زعفران معطر الجيب والأردان:
كأنه ألسن الحيات قد شدخت ... رؤوسها فاكتست من حمرة العلق
أو بصيص رماد، أو ألغات كتبت بالذهب لا بالمداد:
يتفرى عن قانيات حسان ... مثل هذب معصفر من رداء
ومن لينوفر يألف المياه، طمعاً في دوام الحياه، صفره السقام وعذبه، وغربه الأمل وغربه:
كأنه ودروع الماء تشمله ... تحت الشماع أكاليل الطواويس
أو طرف باهت من الفراق يفرق، أو سابح ضعيف يعوم ويغرق. يخفى بالليل ويظهر بالنهار، ويتكلم في الماء
بالسنة من النار:

يجب الشمس لا يبغى سواها ... ويلحظها بمقلة مستهام
إذا غابت تكنفها اشتياقاً ... فنام لكي يراها في المنام
ومن آس ما لجرح محبه آس. يرعى العهود، ولا يميل إلى الصدور. كأنه بقية خضاب في كف رداح، أو
نضال ساهم أعدت للكفاح:
حكى لونه أصداغ ريم معذر ... وصورته آذان خيل نوافر
ومن ريحان يقول: إن وقت الري حان. كأنه وشم يد مطرقة. أو حلة محضرة مفوفة، أو أطواق الحمام، أو
سلاسل سوائف الغلام:
له حسن العوارض حين تبدو ... وفيه لين أعطاف القوام

ومن مثور، منظوم جوهره منشور. عطافه مؤتلفة، وألوانه مختلفة. أبيضه وأحمره كتغر الجيب وخطه، وأصفره كوجه من مني بإعراضه وصدده، يخجل بشذاه نهاراً ويجود به ليلاً، وإلام يتستر وهو متهتك في حب ليلي؟ كأنه عاشق يطوي صبايته ... صباحاً وينشرها في ظلمة الغسق
ومن سوسن، تعالى الله ما أحسن. قائم على سوقه، ينتظر إياب معشوقه. من أزرق بهي الملبوس، وأيض تميل إلى ضوء صبحه النفوس:

كأنه ملاعق من ورق ... قد خط فيها نقط من عبر
ومن خزامى، قدره لا يسامى. يسكن المنازل العلية، ويرفل في حلته اللازوردية. يا لها حلة فاخرة، وحلية باهية باهرة:

لو حواها الطاووس أصبح لاشك ... مهنا بملك طير الهواء
ومن أقحوان، جمع في مفردة القمران.
كشمسة من لجين في زبرجدة ... قد أشرفت حول مسمار من الذهب
ومن آذريون، أظهر القطر سره المكنون:

كأنه أغصانه فيروزج بهج ... من فوقه ذهب في وسطه سيج
أو مسك في جام من ذهب، أو فحم أحاط به اللهب:
تراه عيوناً بالنهار نواظراً ... وعند غروب الشمس أزرار ديباج
ومن بهار، يبهر بحسنه الأبصار:

كسواعد من سنلس وأكفها ... من فضة حملت كؤوس عقار
ومن شقيق، أين منه المرجان والعقيق؟
كأنه وجنات أربع جمعت ... وكل واحدة في صحنها خال
ومن ومن ومن، إشارة فتى بالعجز عن الحصر قمن.

فلما تأملت محاسن هذه الروض الأنيق، ونظرت إلى ما فيها من النبات بعين الحقيقة، شكرت أيادي صانعها، ولجأت إليه وأثنت على صانعها، وإن كنت لا أحصى ثناء عليه، وقلت تعظيماً لأمره: " وما قدروا الله حق قدره ". وانشرح صدري بالوقوف على مغانيتها، وجاد فكري حيث جال في معانيها، وامتلاً قلبي من نورها نوراً، وانقلبت إلى أهلي مسروراً.

الفصل العاشر

في وصف الغلام

بينما أنا جالس في بعض الحدائق، وحوالي رفقة هذبتهم الحقائق، وحسنت منهم الأخلاق بين الخلائق، مر بنا غلام ينجل بلر التمام، من بني الأتراك، الناصين مصائد الأشراك، بديع الجمال، أين منه الغزاة والغزال؟ لطيف الشمائل، يختال بين الحمائل، تمتد لرؤيته من الزهور الأعناق، وتستتر الغصون حياء منه بالأوراق.

وهو ممتط صهوة جواد أشهب، لا يبلغ البليغ حصر وصفه ولو أسهب:
ساحر الطرف وافر الظرف أحوى ... خله الأبيض اللجين مذهب
لا تلمني على اعتقادي هواه ... مذهب الوجد فيه أحسن مذهب
فلما حاذى مثوانا، حيانا فأحياناً. فتلقيناه بالترحاب، ودعوانه فأجاب، فحصلنا من حضوره على المقصود،
وتحققنا أن يومنا بمشاهدته مشهود. فأطلت في محاسنه نظري، وأجلت في ذاته وصفاته فكري، فإذا له ذؤابة
تذيب المهج، وتدرج في حباتها من دب ودرج. ظلها وارف، وظلامها عاكف، تسلب العقول بالأثيث
الأثيل، وتسهر العيون في ليلها الطويل. هندسية العذب، غزيرة الفضل والأدب:
إذا ما تتنى للسلام مليكها ... على أحد دارت وقلت الأرضا
ووجه وسيم، تعرف فيه نضرة النعيم، يفوق سنا القمر، له خفير من الخفر، رقيق البشرة، تحار عند إسفاره
السفرة، نزهة المشتاق، ومرآة لوجوه العشاق:
محيا به المقتول يحيا وكم له ... على وجنة العاني من الدمع جعفر
وجبين، منقطع القرين، واضح كالصباح، صلت تُصلت دونه بيض الصفاح:
وتعجب لطرة وجبين ... إن في الليل والنهار عجائب
وحواجب، دم عاشقها مباح وقتله واجب، كأنها قسي موتورة. أو نونات في صحف اللجين مسطورة:
قد وليت إمرة أمثالها ... وحاجب الشمس لها حاجب
وعيون يا لها من عيون، قد جمعت بين المنى والمنون، تقتل وهي لاهية، وتسكر وهي صاحية، وتصول وهي
كانسة، وتسهر وهي ناعسة. نفاثات في العقد، لا يسلم من سحرها أحد:
لحظاتها كم أرهفت من أبيض ... والجفن منها مثل حظي أسود
وصدغ معقرب، لكنه لرقيه السليم باب مجرب. بعيد من القطف، كأنه واو العطف، أو جيم محكمة العوج،
أو منجل صيغ من سيج:
صدغ أعاديته أبدوا ... من عيبه ما حلا لي
ذم العناقيد جهلاً ... من لم يصل للدوالي
ووجنات، حركت من الخواطر السكنات، تغير الجلنار والنفاح، وتؤلف بين الماء والراح. بها ورد ريجه
للأرواح بلغة " صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة؟ " .
ترى هل من طريق لاجتماع ... بحمرة ذلك الحد النقي؟
وخال خال من العيب، لا شك في حسنه ولا ريب. كأنه قيراط من عبر، أو نقطة شقيق أحمر:
ورثته حبة القلب القليل به ... وكان عهدي أن الخال لا يرث
وعذار، طاب فيه خلع العذار. أنيق يجل عن التشبيه، سائل كدمع محبيه. كأنه همل ديباج، أو نمل دب في
عاج، أو بنفسج أو سوسان أو حاشية كتبت بقلم الريحان:
إن نفسي تميل نحو اخضرار ... فيه، والنفس مثل ما قيل خضرا

ومرشف فاتق، فيه ريق رائق، وثرغ ماله من مثال، وألغاز سحرها حلال، ونكهة نشرها معطر، وماء لسان
أحلى من السكر:

يبسم عن در وعن جوهر ... وعن أقاح أو سنا البرق
وجيد جدابة، فيه لمنهاج الحبة أي هداية، أحسن به من تليل، نحر نحره طويل:
لو جاد لي يوماً بتعنيقه ... قلدت ذاك الإثم في عنقي
وكف ندية، أرواحها ندية، رعبوبة بضة، سباتك أناملها من فضة:
يا حينذا من مالك الحسن يد ... لها على أهل الهوى أيادي
وقد قويم، ألطف من النسيم، مائل مائد، صائل صائد. تهبج عليه البلابل، وتطير إليه القلوب ولو كانت
مقيدة بالسلاسل، إن حضر بان البان، وغار من غيرته في الكئبان:
أبي قصر الأغصان ثم رأى القنا ... طوالاً فأضحى بين ذاك قواما
وخصر رقيق الحاشية، معاهد بنده متلاشية، نحيف نحيل، صحيح عليل:
يستر وجدان القبا معدومه ... ما أحسن المعدوم في الموجود
وردف مائج، نافر خارج، كتيب كثيف، كم له من أسير أسيف. تصعب على الصب نباته، وتنقل على
الخصر وطأته:

يا ردفه ها خصره ... من فرط جورك مائج
أنحله بثقالة ... ما أنت إلا خارج
وسوق تسوق المحين إلى العطب، ويضرم ماؤها الجامد في القلوب ناراً ذات لهب:
إن فرج العين في بستان طلعتة ... مشى ففرجها في جانب السوق
وأقدام مقدمة على أمثالها، مقبولة عند إدبارها وإقبالها، حسنها لا يضاهاى ولا يشارك. وكعبها على الحقيقة
كعب مبارك:

كل يذل له حتى ذوائبه ... أما تراها ترامت تلثم القدماء؟
وعليه من الحلل الفاخرة، والملابس الملونة الباهرة، ما ينجل من حمرة وجه الشفق، ويجسد النهار بياضه
اليق، وتخضع لأسوده الظلماء، وتغار من أزرقه السماء، وتعنو الرياض لأخضره، وتغيب الشمس حياء من
أصفروه.

جمالة الحلي والديباج قامته ... تبت غصون الربا جمالة الحطب
وبخصره منطقة، لم تبرج له معتنقة، تعوقها العوائق، وتقلها - كما يقال - العلائق. فمن سيف ماض
كناظره، وسهم نافذ كأوامره، وقوس كحاجبه، ومدى لتقصير مدى عائبه، وهي تجول في أضيق مجال،
وتنشد بلسان الحال:

بروحي أؤدي من ضريت من آجله ... وقاسيت حر النار وهي تغور
رشاً ضاع ما بين الغلائل خصره ... ألم تربي شوقاً عليه أدور
فخاطبناه في وضع السلاح فوضعه، وسألناه في رفع الحجاب فرفعه. وأخذ ينادمنا بأفصح لسان، ويجلو لنا

عقائل أخلاقه الحسان، وينثر علينا من جواهر لفظه النظيم، ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. والزهور تضحك في الأكمام، والغصون ترقص على غناء الحمام، والنهر يصفق لتشيب الريح في آفاقه، والدوح ينقطه بالدنانير من أوراقه، والعيون تجري بين أيدينا، والنسيم بطيب أنفاسه يحيينا، والروض يفرش لنا بساط سندسه، ويجلسنا حتى على أحداق نرجسه. ياله منظرًا ما أنصره، وسرورًا ما أوفاه وأوفره، ويومًا ما كان أطيبه وأقصره. ملكنا فيه زمام التهاني، وحصلنا على الأمان والأمان. ولم نزل نتمتع منه بكل مطلوب، إلى أن آذنت الشمس بالغروب، فتأهب الغلام لمعاده، وعلا على ظهر جواده، ثم ودعنا وسار، وأودعنا الشوق والادكار وتركنا نقلب على تلهب النار.

الفصل الحادي عشر

في وصف الجارية

تاقت نفسي إلى زيارة بعض الإخوان، فسرت إليه مشمرًا فضل الأردن، في ليلة سما قدرها، وتجلى على السماء بدرها.

فلما وصلت إليه، وانتظمت في سلك المجتمعين لديه، ظهر لي أنه متشوف إلى قادم، ومتشوق إلى حضور منادم: فكشفت الخبر وتقمصت الأثر، فقبل لي إنه واعد بعض الحسان، وهو منتظر إياب الإحسان. فما آتمت الكلام واتصلت من العلم إلى المرام، إلا وقد أقبلت من الباب، خود تختلس الألباب، غادة رؤود طفلة أملود. كاعب رداح، ترتاح لها الأرواح. عديمة المثال، نشأت في حجر الدلال. يسرح الطرف في روض جهالها وينتزه، وتمحو بكثير محاسنها البديعة ذكر عزة، في حليها وحللها تميد وتميل، وبالجملة فهي بثينة الحسن لأن وجهها جميل.

فوقفت واستأنست، ثم سلمت وجلست، فسر الجماعة بورودها، وتملوا من جنة وجنتيها بورودها. وأقبل يمن إقبالهم، وأنشد لسان حالهم:

أهلاً وسهلاً من غادة سمحت ... بالوصل ليلاً ولم تحذر من الحرس
لما تبدت أضاً الداجي، ولا عجب ... فطرة الصبح تمحو آية الغلس

فلما كشفت القناع، وصدق النظر السماع، تأملت أوصافها، وسبرت شماتلها وأعطافها، فرأيت ما يشرف النظر ويشنف السمع، ويذيب القلوب على ناره ذوب الشمع. فمن فرع نامي الأوراق، مرسل لتعذيب العشاق، جتل أسحم يتلوى كالأرقم، غدائره مجملدة كالغدير، وضمائره مظفرة بقتل الأسير:

كأنها فيه نهار ساطع ... وكأنه ليل عليها مظلم

ووجه مشرق الأنوار، تحج إلى كعبته الأبصار. يزين اللآلىء والدرر، ويستمد من ضوئه الشمس والقمر، مرآته صقيلة، ومعاني حسنه جميلة. يترقق فيه ماء الصبا، ويخفي من لمعه بروق الظبا:

عوذت بالسور المنيرة وجهها ... وهو الجدير بأن يكون معوذاً

وجين واضح، تحن إليه الجوارح، يتلألاً مصباحه، ويتيلج في ليل الطرة صباحه:
فتاة يسر القلب و الطرف حسنها ... كأن الثريا علقت في جبينها
وحواجب تذيب المهج، وتجذب الأرواح من قسيها بقبضة البلج كأنها هلال محني القوام، أو فح نصب
لصيد أهل الغرام:
إذا شمت تحت الحاجبين جفونها ... ترى السحر منها قاب قوسين أو أدنى
وعيون بابلية، كم أوقعت لمن إليها صبا بلية، تسل السيوف، وترسل الختوف، صحاح مراض، ليس
لسهامها سوى القلوب أغراض:
لله أي لواحظ غلاية ... للأسد في وثباتها و ثباتها
وخذ كالجنانار، قد جمع بين الماء والنار، يشف الراح في زجاجه، ويهتدي الحائر بنور سراجه. يزهو بورده
الأحمر الطري، وأظنه من دم المحبين غير بري:
تركية للقان ينسب خدها ... واشقوتي منها بخد قاني
وخال يختال في أحلى الحلل، له من الأقراط والشنوف حول. كأنه من الدائرة قطبها، ومن القلوب المتقلبة
على نار حبها:
فتنت بحال فوق خدك صانه ... أبوك فويلي من أهلك وخالك
ومرشف عذب الأرياق، رضابه لسليم الهوى نعم الدرياق. فيه ماء مبرد، وثرغ جوهر صحاخه منضد،
ولعس يهيم به ذو الشوق، وشهد يشهد بحلاوته الذوق:
وبه شراب مسكر ما ذاقته ... لكنني أروي عن المسواك
وعنق كعنت ريم، در عقوده نظيم. يطوف الحلبي بأركانها، ويملك الرق بورقه وعقيانه:
وجيد جداية لا عيب فيه ... سوى منع الحب من العناق
وهود كالعاج، ملتحفة بمروط الديباج، ربيعة المنار، شغلت الحلبي أن يعار. إن ثنيتها لم تجد عندها عطفاً
لمرتاح، وإن لثمتها نشقت من الرمان عرف التفاح:
كحقين من لبّ كافورة ... برأسيهما تقطنا عنبر
وبنان رطيب، على مثله يدور الخطيب، مقبل بالأفواه، مصافح بالجباه، فضيّ الإهاب، مرقوم بالخضاب:
فما أعذب السكب من أدمعي ... وأحلى المشيك من نقشها
وقوام يقيم الحروب، ويثير كرّ الكروب. كامل الحسن مهفهف، وافر الدالّ مثقف. الرماح تخضع
لديه، والأغصان تسجد بين يديه:
وقد روت عن لينه واعتداله ... صحاح العوالي مسنداً بعد مسند
وخصر نحيل، يشكو من ردفها الثقيل. ليس فيه حظ للمجني لو سألتها عنه لقاتل في:
عيون الناظرين به أحاطت ... فلم تحتج إلى عقد الوشاح
وأردافٍ كالأحقاف، وعدها موسوم بالإخلاف، خارجة عن العادة، لكن فيها للمحبين الحسنى وزيادة:
تمشي بأردافٍ أبين قعودها ... بين النساء كما أبين قيامها

وسوق جمد ماؤها، وبهر الأعين ضياؤها. مشرقة النور، قصبها من بلور:
لو لم يكن من برد ساقها ... لاحتوت من نار خلخالها.
وأقدام لها على الفتك إقدام. تمشي كالقطا ولا تخطيء قياس الخطا:
كأن مشيتها من بيت جارها ... مرّ السحابة، لا ريث ولا عجل
وعليها من الحلبي والحلل، ما يفتن العقول ويدهش المقل. فمن در ثمين كتغرها، وبلور صافٍ كصدرها،
وعقيق كسفتيها، وياقوت كوجنتيها. وسيج كأجفانها، وزمرد ككفش بنانها، وقميص رقيق الحواشي،
ومطرف يحار في وصفه الناشي:
إلى مثلها يرنو الحليم صباةً ... إذا ما اسبكرت بين درع ومجول
فلما أنست بالقوم، كفت عنها لسان اللوم، وظهرت عن خلقٍ وسيم، وطباع ألطف من النسيم، ومنادمة
تطرب الأسماع، ومداعية ما الصبر عنها بمستطاع، وملح ألد من الزلال، وحديث لو لم يجن قتل الحبّ لقيال
هو السحر الحلال.
وحديثها السحر الحلال لو أنه ... لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يمل، وإن هي أوجرت ... ودّ الخدّ أنّها لم توجز
والسعد يطلع نجمه، والشمع واقف في الخدمة. وعرف الطيب يفوح، وأعلام الهناء تلوح، وشمل الضد
مفرق، والعود يحرك ويحرق. يا له ليلة محي ظلامها ونور الأفق ابتسامها، وحليت عروسها، وطلعت حارقةً
للعادة شموسها. لم ير فيها ما يشين ويعيب، سوى أنّها أقصر من جلسة الخطيب.
ولم نزل في بشر وافر، وسرور متواتر، نحتلي وجوه الأفراح المتتابعة، ونجنّي من الوصل ثماره اليانعة، إلى أن
صاح العتران، ولا في المشرق ذنب السرحان. فعزمت الجارية على الذهاب، وأمرت بإحضار الإزار
والنقاب. فقمنا إلى موقف الوداع، وتشتت الشمل بعد الاجتماع:
وكان الدمع لي ذخراً معداً ... فأنفقت الذخيرة حين ساروا

الفصل الثاني عشر

في الشمعة والنار

جلست مع بعض الأصحاب، في ليلة حالكة الجلباب، ماؤها جامد، وهواؤها بارد، وطلها متناثر، والماشي
بها في ذيله عائر. نجري ذكر أهل البراعة، ونعد مناقب فرسان أهل البراعة، ونورد أخبار أرباب اللسن،
ونروي عنهم كل حديث حسن:
قوم بهم شرف الزمان، كلامهم ... شرك النفوس وعقلة الأحداق
أشخاص صرفت، ولكن ذكرهم ... أبداً على مرّ الليالي باقي
فبينما نحن نجول في ميدان الحاضرة، ونحقق النظر في وجوهها الناضرة، والليل قد روق، وشراب المنادمة
مروق، لحت في المجلس شمعة، وقفت في الخدمة وأجرت الدمعة، جسمها نحيل، ومحيّاها جميل، قامتها قويمية،

ودرة تاجها يتيمة. تحرقها أنفاسها، ويوبقها نبراسها. كاسية عارية، تخجل بضوئها الجارية:

مفتولة مجدولة ... تحكي لنا قد الأسل

كأنها عمر الفتى ... والنار فيها كالأجل

أو نبل نصله ذهب، أو حية لسائها هب، أو وردة على قضيب، أو محب أسهره بعد الحبيب، أو لينوفرة، أو

سبيكة معصفرة، أو غرة في وجه أدهم السدف، أو كوكب أرخى ذؤابته ثم وقف:

أو ضرة خلقت للشمس حاسدة ... فكلما حجبت قامت تحاكيها

يخوض في لجة الدمع طرفها القريح، وتلعب بلهب قلبها الجريح يد الريح، فنتلعه نجماً، وترسله سهماً،

وتحركه لساناً، وتنشره طيلساناً، وتضربه ديناراً، وتصيره جناناً، وتصوره سوسناً، وتصوغه إكليلاً تبره ذو

سناً، وتعطفه كالهلال السافر، وتنصبه أذن جواد نافر، وترفعه كالسنان، وتقيمه أملة في بنان، وتبسطة

كالمنديل، وتميله سلسلة قنديل، وتخطه ألفاً مستقيماً، وترسمه نوناً أو جيماً. واستمرت مولعة بشخصها،

ساعية في نقضها و نقضها، حتى فني عمرها، وانفصل أمرها، وانحل عقدها، وعز على الجماعة فقدها:

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا ... وأعياء دواء الموت كل طيب

وكان في المجلس كانون، يلقي فيه العود بغير قانون، يضم ناراً ذات هب، له شرر شذره من ذهب، همتها

علية، ومرآتها جلية. تعلقو على الرماح في المواكب، وتراحم الكواكب بالمناكب. فاكهتها في الشتاء محبوبة،

وأعلامها للاصطلاء منصوبة، وهي بقضيب الأنوس لا يجزل الغضا مشبوبة:

كلما رفرق النسيم عليها ... رقصت في غلالة حمراء

كأنها سيح على مرجان، أو زنجية بكفها كرة عقيان، أو شمس محبوبة بالغمام، أو ورد تبسم من خلال

الكمام:

أو أشقر مطهم ... يموج تحت العنبر

أو غادة قد ضمخت ... وجنتها بالعنبر

يهتم بما أقوام، هم واسطة عقد الأنام، كريمة أحسابهم، مفتوحة للوفود أبوابهم، يمتطون ذروة كل محبوبك

القرا ويبسطون موائد القوائد والقرى:

إذا ضل عنهم ضيفهم رفعوا له ... من النار في الظلماء ألوية حمراء

فلم تزل تضطرم، وتستعر وتحتدم، إلى أن حمد لظى جمرها، وغاض ماء شررها وشرها، واضطجعت في

مهادهما، تحكي تحت غطاء رمادها:

دماً جرى من فواخت ذبحت ... عليه من ريشهن منشور

فراقني ما شاهدت من حالهما، وأمعت النظر في منقلبيهما ومآهما، وقمت من شكر المنعم بأداء الفرض،

وقلت بلسان التعظيم: " الله نور السموات والأرض " ثم إن الصحب مالوا إلى الكرى، وطال عليهم - مع

كونهم جلوساً - شقة السرى، فوثبنا لاقتفاء أثر ما تقر عين الهاجع، وسألنا الحي القيوم أن يجعلنا من الذين

تنجاني جنوبهم عن المضاجع.

الفصل الثالث عشر

في مدح العشق وذمه

سألني بعض المائلين إلى الهوى، المصابين بسهام الصباة والجوى - الساهرين في الليل الطويل الذوائب، الذين صرفوا على المحبة حبات قلوبهم الذوائب - عن مراتب العشق وضروبه، وقبائل الحب وشعوبه، وهزله وجدده، وجزره ومدده، وشواهد شهبه وسمه، وما قيل في مدحه وذمه، فأجبتة إلى سؤاله، وجمعت بينه وبين آماله:

يقولون لي صفها فأنت بوصفها ... خبير أجل عندي بأوصافها علم
يا هذا إن أول العشق استحسان من يلائم الطبع من الجوارى والغلمان، تحدث منه إرادة القرب والمودة، ثم يقوى الود فيكون حباً لا يمكن القلب رده. فإذا استحكمت المحبة في القلوب، عادت هوى يهوي بصاحبه في اختيار المحبوب، ثم يصير عشقاً ثم تيمناً ثم يرجع ولهاً على العقول مخيماً، وهو طمع في القلوب يتولد، يعظم بالحرص على الطلب ويتأكد. يخفى عن الأبصار، ويهيج باللجاج والتذكار، كامن كالنار في الحجر، والزهر في الشجر. إن قدحته أورى، وإن سقيته أخرج نوراً:

العشق أول ما يكون مجانة ... فإذا تحكمت صار شغلاً شاغلاً
فأما أوصافه الممدوحة فإنه جليس ممتع بمشاهدته، وأليف مؤنس بمنادمته، مسالكة لطيفة، وممالكة شريفة. برق لامع، ونور ساطع. تستضيء به نواظر العقول، ويفعل في الشمائل مالا تفعله الشمول، ويتصل بجواهر النفوس، فيزيل عنها لبوس البوس، فرح يجول في الروح، وارتياح يغدو في القلب ويروح، وسانح ينشر من البشر ما انطوى، وسرور ينساب في أجزاء القوى:

إذا أنت لم تطرب ولم تدر ما الهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جليداً
يطلق اللسان، ويشجع الجبان، ويصفي الأذهان. يولد الأخلاق الجميلة، ويرغب في اكتساب الفضيلة، ويفتح للبليد باب الحيلة، ويرفع لواء الهمم، ويبعث على الحزم والكرم. يلطف الطباع ويشنف الأسماع، ويدعو إلى تحسين اللباس، ويستعمل بالرياضة أهل الشمس، لا يقع فيه إلا من قلبه صافي، ولا يسلم منه إلا كل جلف جاني:

فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به ... شهيداً وإلا فالغرام له أهل
وأما أوصافه المدمومة: فإنه ملك قاهر، وحاكم جائر. هزله جد وراحته تعب، وأوله لعب وآخره عطب. يعتري النفوس العاطلة والقلوب الفارغة، ويكسف من الآراء شمسها البازغة، ويسوق إلى وليه غمام الغم، ويهيم في وادي الهم. يذهب العقل، ويمرض الجسد، ويقوي الفكر ويضعف الجلد، ترتعد منه الفرائص، وتنقد به نار النقائص. يستعبد الأحرار، ويستأثر ذوي الأقدار، ويصفر الأبدان، ويوقع في النذل والهوان:
وكت أظن الهوى هيناً ... فلاقيت منه عذاباً مهيناً

يورث الأسف والحرق، ويجلب الوسواس والأرق، ويجلد ملابس الوجد والألم، ويمنع عن الاشتغال بالعلوم والحكم. يخالف أرباب الشبهات، ويستخدمهم في تدبير الشهوات، ويعطل عن المصالح، ويجرح بمديته

الجوارح. من جنده الغرام والكلف، ومن رفته الهيام والشغف، يعوق الطالب عن الاستفادة، ويشغل الإنسان عما خلق له من العبادة. جان يفضي إلى الجنون، ويدين أهل المنى من المتون: وما عجب موت المحبين في الهوى ... ولكن بقاء العاشقين عجيب

واعلم، وقك الله شر الشرر، أن أقوى أسباب العشق النظر. رياحه تنشيء سحائب الفكر، ومرآته تجلو على القلب محاسن الصور. فائق النظرة، فإنها تزرع حب حُب ينبت سنبل الحسرة. كم سلب النظر قلب عابد، وفتن عقل ناسك، وحل عقد زاهد، وأجرى آفة، وقرن ذلاً بمخافة، وأثار غبار معركة، وألقى شهماً إلى التهلكة، وأقام حرباً على ساق، وسفك الدماء وأراق، وأوقع في مصائد المصائب، وهشم العظام بأنياب النوايب:

فمن كان يؤتى من عدو وحاسد ... فإنني من عيني أتيت، ومن قلبي فاسلك سبيل السلامة، لتصل إلى دار الكرامة، واقطع أسباب المطامع، واشتغل عن المصنوع بالصانع. فأما من أثر اللذات فقد تورط في حبال البلوى، وانتهى من حرم الحرمان إلى الغاية القصوى " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى " .

الفصل الرابع عشر

في الفراق

الفراق - جمع الله الشمل بمحياك، ورعى ذلك على بعد المزار وحياك - وقد اجترى واجترح، وأذهب المسرة والفرح، وضيق رحب الفضا، وقلب القلب على جمر الغضا، وأورث الكمد، وأذاب جليد الجلد، وجاب. وجال، ونثر عقود الاحتمال، وأوجد الوجد والهيام وأحوج الصب إلى العتب بالأقلام:

كتبت وعندي من فراقك لوعة ... تزيد بكائي أو تقل هجوعي
فلو أبصرت عينك حالي كاتباً ... إذا كنت ترثي في الهوى لخضوعي
أخط وداعي الشوق يملني، وكلما ... تعديت سطرًا رملته دموعي
يا لها لوعة أسعرت وقد الضلوع، ومالت إلى الصبر فأذوت منه الأصول والفروع وصباية صبت النفس إليها، ووقفت لامتثال الأمر طائعة بين يديها، وغراماً يلازم غريم القواد، ويتكلم من الدموع باللسنة حداد، وشوقاً إلى تلك الليالي المستتيرة، والأيام التي تطول الشرح في وصف محاسنها وإن كانت قصيرة:

حيث اللقا والنوى حل ومرتحل ... والدهر يقضي لنا من وصلك الغرضا
لئن تعوضت عني غير مكترث ... فعنك، ما دمت حياً، لم أجد عوضاً
إلى الله أشكو جور أحباب، لا شك في ظلمهم ولا ارتياب:
ساروا وسر الوجد قلبي أودعوا ... يا ليتهم يوم النوى لو ودعوا
أفديهم غائبين أطلوا شقة البين، ونازحين سكنوا القلب حين غابوا عن العين:

رحلوا عن الأوطان لكن في الحشا ... نزلوا، وما راعوا ولكن روعوا
كيف العمل؟ عز الاحتيال، هل من طريق إلى منزلة الوصال؟
يا صاح إن ظباء جيران النقا ... جاروا علي فدلني ما أصنع؟
أحسن بهم ظباء غير أوانس، كم أسهرت العشاق عيونهم النواعس:
نفروا وما التفتوا وعادة مثلهم ... يتلفتون إذا نفاراً أوقعوا
أيها المغرم باللوم والتفنيد، لا تعب نفسك فيما لا يجدي ولا يفيد:
قسماً بهم مالي غنى عنهم ولو ... أمسيت كاسات الأسي أتجرع
كف كف العذل والتأنيب، فلست أحول عنهم ولو براني النحيب.
وأنا المقيم على محبتهم وإن ... حفظوا عهددي في الهوى أو ضيعوا
نعم أقيم على الود والحنبة، وأرعى رب الخال ولو اشتري قلبه بحبة، وأحفظ زمام الذمام، وأصبر في هاجرة
الهجر على الأوامر وأتعلل بلعل وعسى، وأحتمل مشقة آسي جرح الأسي، وأتعلق بأذيال ضيف الطيف،
وأتشبت بأن أوقات الفراق سحابة صيف:
وأطوف في تلك الديار مسائلاً ... عن أهلها أبكي ما قد جرى
لله بعد البعد حمر مدامع ... بنضارها المبدول قد أثرى الثرى

وقد علم الله أن يوم النوى، أضعف بناء جسدي بلهوى فهوى، وأحال صبغة حالي، وسقاني كأس بعد مذاقتها
غير حالي، فعدت ذا سكر دائم، وعناء تحل دونه عقد العزائم. القلب مأوى الموم، والطرف موكل برعي
النجوم، والكآبة في الخاطر خاطرة، والعين إلى نحو الطريق ناظرة، وأسياف الضنى تجرح الجوارح، وسهام
الجوى تجرح إلى الجوانح. لا أعرف لنة الوسن، ولا أمل من السير في حزن الحزن. ولا أرد الماء النмир إلا
ويلفحه من كبدي حر السعير. إن مر الفكر في خلدي شرحت له صدرأ، وإن دعاني الذكر الجميل مرة لبيته
عشراً. ولولا رجاء العود والإياب، لانفصمت من قوى حياة العليل عرا الأسباب، فتباً لأيام الصد
واقطيعة، وسقياً لأوقات كانت على رغم العدا مطيعة، حيث الأوطان عامرة، ووجوه الأوطار ناضرة،
وأغصان العيش مائدة، وصلة الأحباب عائدة:

وسعاد تسعدنا بروضات الرضا ... ويعمنا منها سنا وسناء
لهفي على ذاك الزمان وطيبه ... فلفقده أنا والخلال سواء
أمبشري برجوعه لك عن رضا ... روحي وما ملكت يداي فداء
والله المسؤول في بلوغ الأماني، وإباحة ممنوع التلاقي والتداني، واجتماع المشوق بأهل وداده، ونصرة
المظلوم على أعدائه وحساده، فإنه " نعم المولى ونعم النصير " ، " وهو على جمعهم إذا يشاء قدير " .

الفصل الخامس عشر

في الاستعطاف

أيها المعرض المهاجر، الذي سعى لصدده دمع صبه على الخاجر، رفقا بمن ملك الوجد قياده، وعطفاً على من أذاب الشوق فؤاده، متيم أقلقه فرط صدودك، ومغرم أغراه بجك قول حسودك، وسقيم لا شفاء له دون مزارك، ومقيم على عهدك ولو طالت مدة نفاك. إلام هذا التناهي والغور؟ وعلام ياذا القدر العادل تجور؟ لقد تضاعف الأسف والأسى، وتناول التعلل بعل وعسى، وفي حاصل الصبر ولم يبق إلا المقابلة بالجبر.

هيني تخطيت إلى ذلة ... ولم أكن أذنت فيما مضى

أليس لي من بعدها حرمة ... توجب لي منك جميل الرضى؟

نعم لي حرمة وذمام، وسابق خدمة توجب رفع الملل والملام. ولت ألوذ إلا بباب نعمك، ولا أعتمد في محو الإساءة إلا على حلمك وكرمك. وما جل ذنب يضاف إلى صفحك، ولا عظم جرم يطرد غراب ليله باز صباحك. ومثلك من يسد الخلل، ويغفر الخطأ والخطل، ويقيّل العثرات، ويتجاوز عن الهفوات، ويمح بالغفو تفضلاً، ويزيل القبض عن بسط العذر متطولاً، فلا تخدش وجه رضاك بالغضب، ولا تجمع لمن أسره التفريق بين العتب والتعب، ورق على عبدك رقبك، وأره الدجا والضحي من فرحك وفرقك، وأذقه أري وصالك، كما جرعته شري انفصالك.

وكتت اظن أن جبال رضوى ... تزول وأن ودك لا يزول

ولكن القلوب لها انقلاب ... وحالات ابن آدم تستحيل

طالما آنتسني بقربك، ودنوت مني مفارقاً طباء سربك، واعتنيت بأمرى، وأخذت برضاب ثغرك جهري، وأنجزت وعودي، وأطلعت نجوم سعودى، وأطلت سرورى وابتهاجى، وأصلحت بشراب وصلك مزاجى، وجلوت طرفى بمحاسن طلعتك، وأرويت ظمئى بالعذب القرات من شرعتك.

وكتت إذا ما جئت أدنيت مجلسى ... ووجهك من ماء البشاشة يقطر

فمن لي بالعين التي كنت مرة ... إلي بها في سالف الدهر تنظر

قيدت أمني عن سواك، وبهرت ناظري بنظرة سنالك، وضائق بعدك عليّ المسالك، وغدت مطالبي محفوفة بالمهالك، وكسرت جيش قرارى، وتركتني لا أفرق بين ليلي ونهاري. أجول حول الديار، وأعوم في بحر الأفكار، وأتمسك بعطف عطفك، وأتعلق بأذيال مكارمك ولطفك. أما علمت أن الكريم إذا قدر غفر؟ وإذا صدرت عن عبده زلة أسبل عليها رداء العفو وستر، وأن شفيع المذنب إقراره، ورفض خطيئته عند مولاه استغفاره. ومن أبدى باعترافه الحجة، فقد استوجب أن يسلك في مساحته أوضح المحجة.

ومن كان ذا عذر لديك وحجة ... فعذري إقرارى بأن ليس لي عذر

لهفي على عيش بسلاف حديثك سلف، وأوقات حلت ثم خلت وأورثت التلف، وزمان ولى مجاناً، وحبيب ذهب مغاضباً، واهماً لأيام بطيب أنسك مضت، وبروق ليال لولا قربك ما أومضت:

ما كنت أعرف في الهوى مقدارها ... رحلت وبالأسف المبرح عوضت

كيف السبيل إلى إعادة مثلها؟ ... وهي التي، بالبعد، قلبي أمرضت

إلى كم أموه وأغالط، وأجاهد في سبيل الصبر وأرابط، وأكلف اللسان مكابدة حمل الكتمان، وأسر من الصباية ما أعلنه دمع الأجنان. أتكنم رائحة الطلأ؟ وهل يخفى على ذوي الأبصار ابن جلا؟ لقد برح الخفاء، وأطلت يا رقيق الحاشية شقة الجفاء، وأثمت الأعداي، ومددت ظل التمادي، وزدت في المهجر والبعاد، وكلمت القلب بألسنة الصعاد. فجد بالتداني، واسمح بنيل الأماني، وارحم الها وأبدت ظلمة الفراق فرقه، وتصدق على مدنف سائل دمه يقبل الصدقة. وألن قلبك القاسي، وعد عن التناهي والتناسي، واراع الود القديم، وأبدل شقاء محبك بالنعيم، ولا تعدل عن منهاج المعدلة، وسلم فقد أخذت حقها المسألة. واغمد سيف حيف صيرته مسلولا، وأوف بالعهد " إن العهد كان مسؤولاً " .

الفصل السادس عشر

في مجلس الشراب

كان لي صديق مغرى بشرب الرحيق. غزير الفضل والآداب، كثير اللهج بذكر مجالس الشراب، وكان يود حضوري عنده، وأنا لا أبلغه مما يود قصده. فأتاني حيناً من الأحيان، يدعوني إلى مجلس بعض الأعيان، وألزمي بأن أحالفه، مقيماً على ألا أخالفه، فأجبت إلى المحاضرة، مشروطاً بعدم المعاقرة. فقال: أجل أيها الأجل، وسأتيك إذا هزم النهار واضمحل. فلما أنس قدوم الليل، آب يسحب سحائب الذيل، وهو يقول: يا من به ينفى الكمد ... ويشيت العيش الرغد
جد بالوفا قد آن أن ... ينجز حر ما وعد
فمضيت صحبته إلى دار، جرى بها فلك السعد ودار، عالية الجناح، رفيعة القباب. فاخترقنا أستارها، واجتلبينا أقمارها، حتى انتهينا إلى مجلس فسيح، قدح الفائز بأقداحه غير منيح.
لا تسمع الآذان في جنباته ... إلا ترنم ألسن العيدان
أو صوت تصفيق الجليس ونقره ... وبكاء راووق وضحك قناني
يشتمل على ندمان، لا يسمح بمثلهم الزمان. حاشيتهم أرق من النسيم، ومزاج كاساتهم من تسنيم. إن نظموا أودعوا أصداف المسامع درأ، وإن نثروا نفثوا في عقد العقول سحراً.
تنازعوا درة الصهباء بينهم ... وأوجو لرضيع الكأس ما يجب
لا يحفظون على النشوان زلته ... ولا يريبك من أخلاقهم ريب
بينهم سقاة حسنت صفاتهم، وتكفلت بالإنصاف كفاتهم. كم فيهم ذو وجه جميل، وده صحيح وجفنه عليل. سمهري القوام، جوهر الكلام. تعطف الأغصان سجداً لعطفه، ويسقي بطرفه أضعاف ما يسقي بكفه:

ساق غدا يحكيه من ... بان النقا وريقه

واظمني وكالزلا ... ل خمره وريقه

أيديهم أقداح، تفتح أبواب الأفراح، وملاكها ملوك أكاسرة على الأسرة. النور ضمن إزارها، ومعدن

الذهب في قرارها. تعدل وهي جائرة، وتنشد وهي دائرة:
صل الراح بالراحات واقده مسرة ... بأقداحها واعكف على لذة الشرب
ولا تخش من ذنب فأوراق كرمها ... أكف غدت تستغفر الله للذنب
وأباريق تسجد لربها، وتقبل الأرض لدى صبيها. كم أصلحت فساد مزاج، وأوضحت منهاج ابتهاج. تحكي
إوزاً معوجة الرقاب، أو طباءً أشرفن من ذرى الهضاب:
وكأتما الإبريق عند ركوعه ... والإثم يلثم ثغره المعوتا
طير بمنقار له من لؤلؤ ... لما أسف تناول الياقوتا
وأكواب مصفرة الأثواب، تغني عن المصباح، وتهدي ريح التفاح. تبعث على الحماسة والسماحة، وتعب
سوق ساقبها القلب وهي في راحة:
لله أكواب همومي حرمت ... لما أباحت خمرها المسكوبا
نار ولم تحرق، وإن أنكرت ما ... أوردته يا صاح فلمس كوبا
وكؤوس تسر بحسنها النفوس. تغورها باسمه، ومناهلها لمادة الأسي حاسمة. تحمد عند الصبوح والغبوق،
وتشرح الصدور في حالي الغروب والشروق.
ولرب ساق محسن في كفه ... كأس برؤيتها نفى عنا العنا
وعلى ذراها ليس يبرح ناصباً ... شبك اللآي كي يصيد لنا هنا
وينطوي على قيان، ينشدن البديع من سحر البيان. هن أصوات، توظف أعين اللذات. يشنن الأسماع،
ويتقن أجناس الإيقاع:
قيان حكين البلر حسناً وبهجة ... زمان الذي يحظى بهن وسيم
إذا هن ألقين الغناء بمجلس ... فمعبد والغريض هشيم
وبه شمع يدهش الأبصار، ويحي ما مات من ضوء النهار. ديبقي الملابس، عقيقي القلائس. وافر الأدب
والهمة، لا يبرح واقفاً في الخدمة:
من كل هيفاء قهوى الشمس رؤيتها ... بكت وأنت فلاح الماء واللهب
تجلى على السراب في ثوب لها يقق ... كحبة من لجين رأسها ذهب
وفيه أنواع من الشراب، تلمع في أوانبها كلمع السراب. فمن خرطوم، تخفي بدر حبابها النجوم، وشمول
تشمل القوم بالقبول. ومشعشة منازل كواكبها مرتفعة، وعاتق تقدم عصرها، وخف على النديم أمرها.
وخابية حانية، قطوف كرومها دانية:
وطوس وقنديل عقار وقرقف ... مدام وإسفنط سلاف وجريال
طلاً وسباء والحميا وقهوة ... كميت، شمس، خندريس وسلسال
إلى غير ذلك من روح وريحان، ومحاسن وإحسان. ومسموع ومشوموم، ومشروب ومطعوم. وعود يحرق
ويحرك، ومسك في الصحف يفتت ويفرك. وقرريض ينشد، وعرف ضائع لا ينشد، وبم وزير، وجنة وحرير،

وزهور ومزاهر، وملح ونوادر، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون:
أيا نديمي لو شاهدت وقفنا ... في مجلس اللهو حيث الخضم مغلوب
والدف والذن مضروب ومنكسر ... والزرق يذبح والراوق مصلوب
وبالجملمة فإني عاينت من التفضيل، ما يغني عن التفصيل، وكاد تقيل الطرب يستخفني لولا عناية الملك
الجليل. ثم نظرت وإذا أمر القوم قد اضطرب، والعترفان يجبر عن ذنب السرحان بحسن المنقلب، فأشرت
إلى صاحبي بالنقلة، وعرفته أن الليل قد عزم على الرحلة. فقام يهتز من السكر اهتزاز الأفنان. وانصرفنا،
وأنا أمشي كالرخ وهو يمشي كالفرزان. فلما صرنا إلى البيت، خر صعقاً كالميت. فجلست معرضاً عن
الكرى، متفكراً فيما قد جرى، لائماً نفسي على اتباع الهوى، ذاماً لها على معاشرته من ضل وغوى. ثم إني
ملت إلى الاستغفار، وسألت الغفو من العزيز الغفار، ولذت - كما قال الحريري - بالمتاب، وآيت لا
أحضر - ما دمت حياً - مجالس الشراب.

الفصل السابع عشر

في الشيب والخضاب

رأيت بعض مشايخ الأصحاب، وهو يتعاطى ما يتعاطاه الشباب. فقلت: يامن وعظه الشيب، جاءك النذير
بلا ريب، فاصرف عين العيب، واق عالم الشهادة والغيب. نأت الغرابيب السود، ودنت البزاة واثية
كالأسود. وظهرت غرة القمر، وأومض البرق في ليل الشعر. ورمي فاحم القود بضده، واشتعل المبيض في
مسوده. قدم رائد الهداية، وزائد الغواية، وطلية العفاف، وذريعة الإنصاف. ومظنه الوقار، ومشرق
الأنوار. فخلل الخلال الجانية عليك، وأحسن كما أحسن الله إليك:
إنما تحسن الرياض إذا ما ... ضحكت في خلالها الأزهار
من شباب عذاره لم تقبل أعداره. من عدل شبابه ولي مصابه. من لمع ضوء فرعه، تفرق شمل جمعه. من كبر
ذوى عوده، وغابت سعوده، وأفل نجمه، ووهن عظمه، وضعف بعد القوة جسمه، وخذت منه الأنفاس،
عنه طباء الكناس:

لو كان عمر الفتى حساباً ... كان له شبيهه فذلك

يامن أدركه المشيب، اترك الغزل والنسيب، إرجع إلى الله من قريب، ولد بالمتاب واعدل عن الخضاب،
واخش نصول الفضول، ودع من يزور ثم يزول. ولا تطمع بوصل الحسان، واكتب لمن تسريحاً يا حسان،
واحذر منهن العدو الأزرق، واسبق إلى منعهن من قبل أن تسبق.

عذر الكواعب أهن كواكب ... لا يجتمعن مع الصباح إذا بدا

فنظر إلي ملياً، وقال: لقد جئت شيئاً فرياً. يا هذا أنت ناصح أمين، أم ذابح بغير سكين؟ نكست الأعلام
وفنت الأحلام، وفخمت الوعيد، وجلت في ميدان التهديد، وآثرت نيران التلف، ودثرت " عفا الله عما
سلف " ، وأدريت غمام الغم، ومدحت ما يستحق الدم:

ما رأينا المشيب إلا كتلج ... أبيض بارد قليل المقام
وهاً له من زائر يظهر العدل وهو جائر، يأتي من الشهب على كل ضامر، ويجزب من الأعمار كل عامر،
ولا يرجي لسليبه عوض، ولا يقضي لصاحبه غرض. ناع ينغص لذة الرفاق، وساع يطوف بحرم الفراق.
معلول لا يعتني بحفظ ميثاقه، ورسول معجزته الخوف من اجتماعه، والفرق من فراقه:
له منظر في العين أبيض ناصع ... ولكنه في القلب أسود أسفع

غرة مرة، ونور ليس معه مسرة. يبلي الجديد، ويصيد الصنديد، ويعتدي على الشباب، ويفرق بين
الأصحاب، ويسود بياضه اللون، وهو عنوان فساد الكون. رفعت عند نصحك مقداره، ونفيت قاره
وأثبت وقاره:

وأي وقار لامرئ عري الصبا ... ومن خلفه شيب وقدامه شيب
ثم إنك رثيت وما رثيت، ومريض المشيب عن معالجة الخضاب فميت، وأطلت التعنيف، وأكثرت الأراجيف.
وسقت الشائب إلى رسمه، ومنعته من التصرف في نفسه، وبسطت شقة الشقاق. أما سمعت قول الوراق:
للضيف أن يقري ويعرف حقه ... والشيب ضيفك فاقره بخضاب
فقلت له: إلام يجتفي الزامر ويتستر؟ وحتام يكتم الكتم شيئاً بعد ثلاث يظهر؟ وهل يرد التمويه ما مضى؟
أو يخمد ماء الصبغ جمر الغضى؟

تستر بالخضاب، وأي شيء ... أدل على المشيب من الخضاب
فقال: قد أطلت الملام، وأنخت القلب بكلام الكلام، ونشرت رداء الرد، وزاد سيف عدلك في الحد:
لمع المشيب، وبعد عندي صبوة ... يلى القميص وفيه عرف المندل
يا هذا إني لأعلم أن الخرق يتسع على الراقع، وأن التمادي في التصابي سم نافع. لكن الفطام صعب، وكل
أحد لا يمكنه رأب الشعب، وترك منصب الإمارة، شديد على النفس الأمانة. وهي إلى حضرة الخضرة
تميل، وعلى الله قصد السبيل:

لعمرك ما خضبت بياض شبيبي ... رجاء أن يعود لي الشباب
ولكني خشيت يراد مني ... عقول ذوي المشيب فلا تصاب
وأنا أستغفر الله من الزلل، واستعين به على سد الخلل، وأتوكل عليه إنه جواد كريم، وأتوب إليه إنه هو
التواب الرحيم.

؟

الفصل الثامن عشر

في الخيل والإبل

وفد علي يوماً ذو ألوك، يدعوني إلى حضرة بعض الملوك. فلبيت مناديه، ويمت في المال نادية. فرحب بي على عادته، وقرب مجلسي من وسادته. ثم قال لي: عرض لي أن أعرض العناق، وأتبعها بالنجائب من النياق، فأحببت حضورك، وقصدت نزهتك وسرورك.

فشكرت فيض فضله، ودعوت بتوفير خيله ورجله. فما استتم المقال إلا والنجائب تقاد بأيدي الرجال: فمن أشهب يقق، إن طلب لحق، وإن طلب سبق. طرف يحار الطرف في حسنه، ويرى الناظر شخصه في مرآة متنه. بعيد المنار والمنال، طلعت الفجر وسرجه الهلال. لا يخطر معه "الخطر" ولا تعلق "الغبراء" له بغبار. يهدي فارسه من حافره بسنا السنابك، ويغتدي عند امتطاء صهوته من الذين ينظرون على الأرائك. ومن أدهم غريب، لا يعلم أجوب هو أم جنيب. يسبق السيل في السير، معقود بناصيتها الخير، ينساب كالثعبان، ويعطف اعطف السرحان. زاد على "زاد الركب" وزاحم النكباء بالمناكب، يسلب العقول بحسن دسيعة وتليله ويخطف الأبصار برق غرته وتحجيلة.

ومن أشقر خلوقي الجلاب، ألبسه الأصيل حلة تفتن الألباب. الراح تحكيه في لباسه، والرياح لا تقدم على مجارته لباسه، متقلد بالذهب، متقلب في الذهب، يشفق من مناظرته الشفق، ويسرق من لين شعره السرق، ينقص الزائد لديه، ويفوت "أعوج" ثم يعوج متهكماً عليه.

ومن كميت طاب عرفه، واسود ذنبه وعرفه. أسيل الخدين، بارز النهدين، عندهم اللباس، يحول بين الظباء والكناس، إن وثب ألقى العنان بالعنان، وإن وقف عاينت كل عضو منه وردة كالدهان. يجد السير في حزن الفلاة وسهلها، ويرد الودبعة محمولة إلى أهلها.

ومن أصفر لونه فاقع، كم له في الحلية من طائر خلفه واقع، ينتمي إلى الحبشان، ويعبر بلونه الزعفران. الدجا على عرفه قابض، وماء القار على ذيله فائض. يتجلى في الرياض الشمسية، ويسبح في الجداول الوردية. لا يمل من التقريب والإلهاب، ويأتي من عدوه بغرائب يشيب منها الغراب.

ومن أخضر حسن وشياً، وراق للعيون جرياً ومشياً. زرزوري الإهاب، يجمع بين الشيب والشباب. زبرجدي الحافر، أين منه الغزال النافر؟ يظهر عجز "مكنوم" وتحمد عنده جمرة "اليحموم" ينجل بفؤيفه الرياض، ويسابق أسهم راكبه إلى الأغراض.

ومن أبلق عظمت فصوصه، واشتهر حسنه وشهر قميصه. طويل الخزام والذيل، وهامته من الصباح وشامته من الليل. يمرح في جلاله جلاله، ويولع إذا غابت الخيل بمسابقة خياله. ينحط الوجيه عن أوجه، ويفرق "الفياض" في موجه، يسبق النعامي و "النعام" وينظر بعيني زرقاء اليمامة:

جرد بهن لكل عين جنة ... فإذا جرين أتين بالنيران

يحكين في البيد النعام رشاقة ... ويسرن في الأهمار كالحيتان

ثم إن الملك أمر برد الجنائب، وأذن في عرض النجائب، فأقبلت تنهادى صحبة سواسها، وتبختر في مصبغات أكوارها وأحلاسها: فمن جسرة لونها أحمراً، وليل سراها واضح أقمراً. عنكرة عيطموس، تميل إليها الخواطر والنفوس، مواراة اليدين، بعيدة وخذ الرجلين أنحلها التسيار، وهذبتها الأسفار.

ومن سرداح لوفا أرمك، يكاد خيال السمك بما يمسك، مليئة بالذوح والإساد، تخالط حمرتها السواد. جميلة الصفات مرقال، حسنة الشمائل شمال. رحبة السقل والخطا، لا يعرف لها عدول عن الطريق ولا خطأ. ومن رقوب لوفا أزرق، تطفو في بحر السراب كالزورق. ظهيرة دوسرة، منوفة بهزرة تطس الآكام، وتبت في أثواب ورق الحمام. موصوفة بالإعصاف، معروفة بالإعناق والإيجاف. ومن أمون لوفا جون، وكون مثلها من محاسن الكون. تميل إن شبهتها إلى الدجا، ولا تمل من السير ولو براها الوجي. لها فخذان لحمهما وافر، وذنب تكنفه جناحا طائر، نفوت الريح في خطرهما، وتطأ جمر القبيظ بجمراتها. ومن وجناء لوفا أصهب، ورباطها الدمسقي مذهب، ترعى الحدائق وترعى الحادي والسائق. شكول عسبور، تسامي رأسها أعواد الكور، غائرة الأحداق، سريعة الاندفاع والانطلاق. ومن مصباح لوفا أغبش، وكل من قوائمها أحس، يخالط بياضها شقرة، يولد الاجتماع بها طريقاً إلى النصر. هوجاء دفاق، روعاء مزاق، ترض الحصا برصها، وتستطلع الأخبار بنصها. ومن شمردلة لوفا أحوى، مهارق البيد بغيرها لا تطوى. تجوب القفار وتجوس خلال الديار. مشفرها رقيق، وسبب وظيفها وثيق. تختال في شنفها وزمامها، وتدهش الأبصار بسنا سنامها: وحوص غدت سفن المهامه والفلا... ألم ترها تطغو على بحر آها تخط حروفاً بالمناسم في الثرى... يقصر عن تحويرها ابن هالها فلما تكامل العرض بعد الطول، وأفلت أقمار الإبل وغابت شمس الخيول، أخذ الحاضرون في تذكر أشكالها، وأفاضوا في نعت محاسنها وجمالها. ثم إن الملك أمر باحضار الطعام، واشتغل الناس بالمائدة عن الأنعام. فقامت مبادراً إلى الذهاب، متفكراً في رزق الله لمن يشاء بغير حساب، قائلاً: فاز المخفون، وهلك المتقلون، تالياً: " وذلناها لهم فمناها ركوبهم ومنها يأكلون ".

الفصل التاسع عشر

في الوحش

هفا بي هيف الإسفار، وطوحني بين أنكر صحبة الأسفار، إلى خرق متنسع الجوانب تطول على سالكه سبائب السباسب. فسرت أطوي خيفه وصمانه، وأرض جلاميده وصوانه، إلى أن دنت الشمس من الزوال، وآل أمر الظامىء إلى رؤية الآل. فبينما أنا أروء لأرد، لاح لعيني غدِير مطرد. فأتيته مسروراً، ونهلت منه ماء مقررراً. ثم تروضت لأداء المكتوبة، وأبرد بالصلاة ما صلي من الجوارح المكروبة. ونظرت فإذا تلعة من التلاع، مشرفة على اليفاع، من تلك البقاع، فاقبعت ذروتها، وتلقيت للقبولة هضبتها. فما استقر المجلس بي ولا بلغت من الراحة أربي، إلا والغبرة قد نشرت، والوحوش للورد قد حشرت: فمن أسد ورد شديد لباس، عرد صعب المراس، بين جفنيه مقباس. شش الكف، لا يهرب من أبطال الصف. ملك مهاب، تبري الإهاب، حديد الظفر والناب، يخلفه الشبل إن غاب عن الغاب: متخضب بدم الفوارس لابس... في غيله من لبدتيه غيلا

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه ... فكأنه آس يجس عليلاً
ومن نمر شرس الأخلاق، دم الفريسة بين يديه يراق. الجلبة ضمن جلابه، والنوابب كامنة في أنيابه، وثباته
لا تنكر، وثباته أشهر من أن يذكر. يقطع الطريق، ويحب شرب الرحيق:
أحسن به من النمرور أهراً ... يحار في تدبيجه أهل الحجا
إذا بدا يريك من إهابه ... طرة صبح تحت أذيال الدجا
ومن فهد خصره رقيق، وعقد فقاره وثيق، واضح الجبين، أفضس العينين. كم فرى من فرا، واجترح
واجترأ، وظفر فظفر، وتحفر به الصيد فما خفر.
فهد كحيل المقلتين مرقش ... جهم الحيا لا يمل من الحق
والليل فيه والنهار تغايراً ... لله ثوب ألبساه من الحدق
ومن دب مختلف الطباع، يأكل مما تأكله الدواب والسباع. بعيد مقترب، مغرى باللهو واللعب. كثير
الشهوة، قليل الغيرة والنخوة. يقبل التعليم والتأديب، ويأتي من بحر فطنته بكل عجب:
وذي وبر قوي مصلخد ... تراه يدب ما بين الدباب
له ظفر إذا ما عن صيد ... له ظفر وناب غير نابي
ومن ضيع حضاجر، كنيته أم عامر. موصوفة بالعرج، تفترس من دب ودرج. تشتهي السفاد، وقيل إلى
الفساد، وتخرج من الوجار، ولا ترعى حق الجار ولو أجار.
صنعنا جميلاً قابلونا بضده ... وهذا فعال الخائنات القواجر
ومن يصنع المعروف في غير أهله ... يجازى كما جوزي مجير ام عامر
ومن ذئب أطلس، عمر وعسعس، يسطو بأنياب حداد ويألف الوحلة والانفراد. الغدر له شيمة، والغنم
لديه غنيمة. صبور على السفر، شديد الخوف والحذر:
ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع
ومن ثعلب رائغ، زائل عن الطريق زائع. وافر المكر والحيل، يضرب بخديعته المثل. حسن اللباس، يرتدي
بالسندس والقرطاس. يحب الدجاج والحمام، وربما أوقعه في شرك الحمام:
يطير قلب الطير في وكره ... مخافة من نابه النابل
لكنه يلقي الردى بعدها ... كم أكلة أجت على الآكل
ومن هر يسبق الهرهور حد الناب والأظفور. عيناه كالزجاج، ومرطه كالدجاج، أخنس الأنف لطيف محل
الشنف. يقعي إقعاء الأسد، ويلوي من ذنبه حبلاً من مسد:
وهر أهرت الشدقين ضار ... له حسن بديع غير خافي
بكعبة ربه كم طاف سبعاً ... ويغسل وجهه قبل الطواف
ومن نمس كميت اللون، ماللطير والتعبان منه صون. صائل صائد، ظهره عظم واحد. طويل الخطم قصير
اليدين، ليس له سوى صماخين من الأذنين:

وظربان يألف الظرابا ... ويقنص الحسول والضبابا
جلدته كالتقد في قوتها ... لا يقطع السيف له إهاباً
ومن سنجاب أبلق، بطنه أبيض وظهره أزرق. يأوي الأشجار العالية، ويسكن الأماكن الخالية، جميل
الملابس، حسن اليلامق والقلانس:
لله سنجاب بر ... ذو ناظر كالشهاب
في الدوح يعدو ويبدو ... كقطعة من سحاب
ومن فيل، له خرطوم طويل، يشبه الصولجان، ويحكي في تلويه الأفعوان. وأذنان كالترسين، تحتها نابان
كالرمحين. عقبة كؤود، شديد الغيرة حقود، يرتاح إلى الطرب، وينخرط في سلك العجب:
وهندي كطود مشمخر ... ذكي القلب يفهم ما يقول
لقاء العسكر الشاكي عليه ... يهون لأن منظره يهول
ومن كركدن كالجلموس، تنفر منه الخواطر والنفوس، قوته شديدة، وأسلحته عديدة عديدة. له اختيال في
مشيته، وقرن غليظ في جبهته، يظهر بأرض الهند والحباشان، فيخضع هيبة له سائر الحيوان:
وكر كدن كدن ... في خلقه عجائب
له سلاح حاضر ... والعقل منه غائب
ومن زرافة، حازت أنواع اللطافة . بردها بالوشي ملمع، وقرنها بالسبج مقمع، طال جيدها جداً، وجاوز
غضب عجبها حداً. عالية الصدر منحطة المآخر، جميلة الأوصاف والمفاخر:
نوبية المنشا تريك من الطلا ... روقاً ومن بزل المهارى مشفرا
جبلت على الإقعاء من إعجابها ... فنخالها للتيه تمشي القهقرى
ومن مها ثمر حسنها قد زها. عنقاء مبهر، خدها مضمخ بالعنبر. تفتن العقول بأحداقها، ويعز على القلوب
غداة فراقها:
عيون المها على ذي صباية ... صبور على الهجران ليس يحول
يحن إلى سلع ونجد وحاجر ... منازل فيها صحبكن تزول
ومن أبل ضباب، يحمي من قضب شجرتيه بالقواضب. يأكل الأفاعي، ويحسن في تحصيلها المساعي.
يشتغل بالصغير والطرب، فيشتغل بنيران العطب:
متشعب القرنين يدعى أيلاً ... من دمعه بادزهر الحيوان
ومن فرا ليس في حسنه مرا. كل الصيد في جوفه، لا يستقر على الثرى من خوفه. يمس في برده القشيب،
ويطول عمره ولا يشيب:
شغلته لواقح ملأته ... غيرة فهو خلفهن كمي
ومن وعل أرقب، لا يفارق النفق والمرقب، يحمي الأروية، ويحجب في البر عن البرية. يسكن في الأماكن
الوعرة، ويصبر على شدة القررة والوعرة:

إن شئت تلقى راهباً ذا رغبة ... في شامخ عالي الذرا فالق الوعل
سامي التليل بالضياء مرتد ... من تيهه وبالظلام منتعل
ومن ظبي غرير، متلفع بمطارف الحرير. كحيل الطرف ذكي العرف. جميل الصفات حسن الالتفات. إن
حضر أحيا الأرواح، وإن أحضر فات الرياح:
غزال قد غزا قلبي ... بأسياف من الطرف
له عطف به ميل ... ولكن لا إلى العطف
ومن أرنب يرتع بين الشيح والرنب. بطنه يقق، ومتنه شفق. قصير اليدين، ينام وهو ساهر العين:
وأرنب ذي وثوب في سياحته ... أثوابه صبغت من ماء عقبان
إذا جرى في فلاة خوف مقتنص ... تخاله كرة تقفو بميدان
ومن قرد نسناس، في خلقه ما يشبه الناس. خفيف الروح، يغدو في الشواهدق ويروح. نزيه يهفوف، بالفهم
والذكاء معروف:
أحسن بقرد سريع الفهم ذي شبه ... بالآدمي وهذا القدر يكفيه
له لسان ولكن لا يوافقه ... يكاد ينطق لولا عجمة فيه
فلما عانيت من تلك الوحوش ما راقني، وشاهدت من أصنافها وأوصافها ما شاقني، واجتليت محاسن
عرائسها، وتزهت في رياض ملابسها، قمت من شكر بارئها بما يجب، وأعلنت بتوحيد رازقها من حيث لا
تحتسب، وتلوث إذ أدهشني جمعها وخلقها: " وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها " . ثم إنها مالت من
الورد إلى الصدر، وتفرقت بعد الاجتماع شذر مذر، فنهضت عازماً على الإياب متوكلاً على الكريم
الوهاب، عائجاً إلى حيث أتيت، مثبتاً في ديوان الغرائب ما رأيت.
؟

الفصل العشرون:

في الطيور

أخبرني بعض الإخوان، أنه رأى بلدة من البلدان، متسعة الفناء، محكمة البناء، تروق العيون، وتحرك
السكون، بالقرب منها واد خصيب، يشتمل من الأطيبار على كل غريب، مديد الأشجار، منسرح الأنهار،
وافر الخير، يعرف بوكر الطير. ففقت إلى رؤية ذلك الوادي، وحداني من الشوق إليه حادي، فسرت
أطوي البيد، وأصل التحليج بالتنويد، إلى أن أتيت إليه، وأنخت راحلتي عليه. فعانيت منه ما حقق مطالبني
ووجدت به ما صاح بي كما قال صاحبي:
واد عليه للمحاسن رونق ... وبه طيور طاب عيش نديمها
أرجاؤه مشحونة بسباعها ... وكلاهما وبغايتها وبهيمها
فمن صقر شريف النجار، رفيع المقدار. القمر منظره، والهلل منسره. له ثوب أرقط، بياضه بالسواد منقط،

حسن السلوك، لا يصحب إلا الملوك.
ومن باز أشهب، جمر مقلتيه يتلهب. خفيف الجناح سريع النجاح. يلمع في الجو كالبارق، ويقض
انقضاض الطارق. قوي الافتراس، يثب على الطريدة وثوب الهرماس.
وصقر أحمر الجليات شهيم ... طموح العين معقود اللواء
يطير إلى الفلاة يروم صيداً ... فيرجع بالأرانب والظباء
وشاهين رحيب الصدر جون ... يجيد السبح في بحر الفضاء
إذا الكركي لاح سما إليه ... وعاجله بمحتوم القضاء
ومن كوهية حالية الحلة، تجلى كالعرائس في الأكلة، ملابسها مدبجة، ومخالها بدم القلوب مضرجة، ذات
درع ظلها ضافي، منتظمة القوادم والخوافي. تمر مر السحاب، وتأتي بما لم يكن في الحساب.
ومن باشق فرعه مع صغر حجمه باسق، زعرور الأخلاق ذهبي الأحداق. شاكي السلاح، محمود الغدو
والرواح. يمرق كالسهام، ويوقع الحمام في شرك الحمام:
وطاو أعار الروض لما ... مشى في اللازوردي المذر
يلوح على المفارق منه تاج ... بديع تاج قيصر عنه قصر
وديك عرفه من أرجوان ... وجؤجؤه من الوشي الخبير
يرى سهر الدجا حتى إذا ما ... دنا الإصباح هلال ثم كبر
ومن ببغاء جميل الصفات، قوي على حكاية الأصوات. فهمه صحيح، ولسانه فصيح. هندي الأوطان،
زبرجدي الأردان. طرفه مركب من قار، وله من الباقوت منقار.
ومن هدهد وافر الهداية، نافر عن الضلالة والغواية. يرى الماء في باطن الفجاج، كما ينظره الإنسان في
داخل الزجاج. مرقوم البرود، كثير الركوع والسجود. يمد في حلله الفاخرة ويميس، كأنما ألبسه سليمان
تاج بلقيس:

ودراج تبدى في قميص ... نضير الزهر زهري أنيق
فصوص بنفسج في ياسمين ... وريحان تشقق عن شقيق
ومن حجل يعاقب عليها ... مروط أشبهت لون الدبيق
لها طرف تركب من نضار ... ومنقار تكون من عقيق
ومن قطا، ياله من قطا، حسن المشي متقارب الخطا، جيده مطوق، ومبسمه بالزعران مخلق. منقوش الإزار،
كأنه عب من كأس عقار. جناحه محضوب، وصدرة بماء الذهب مكتوب. ومن يمام، يفني بالعهد والذمام،
مشهور بالسجع، معروف بالذهاب والرجع. يألف الرياض ويرفل في ثوب فضفاض. يؤدي الأمانات إلى
أهلها، ويتحرى في رواية الأحاديث ونقلها:

ومن هزار كامل المعاني ... حلو الحلى منطلق اللسان
تراه إن غنى على العيدان ... يطرب ما لا تطرب المثاني

وبليل بليل قلب العاني ... حلتته من أسود الجنان
قام خطيباً في ذرا الأغصان ... يأمر بالعدل وبالإحسان
ومن ورشان، يودع المسامع أطيب الألحان. نوبي الدار، علي المنار. شهبي التغريد، معبدي الأناشيد. يحسن
الأنعام، ويفري الخلي بالوجد والغرام.
ومن قمري أخفى القمر، كم فمي على منبر الأيك وأمر. ساجع مطراب، إعجابه لذي المعارف إعراب.
أشهل العيون، وفي جيده من خط القلم نون. يستديم شكر الدائم، ولا تأخذه في التسييح لومة لائم:
وفواخت كدرية أطواقها ... مسكية والطرف منها أسود
طوراً تفوح على الغصون لفقد من ... قهوى، وطوراً للوصال تغرد
وغراب تغريب فصيح أعجم ... داجي الإهاب مقامه لا يحمد
يهوى نوى أصحابه فإذا نأوا ... أضحي مقيماً بالديار يعدد
فيالله من واد أنبت السرور، وحوى أصنافاً همة من الطيور، لا أجمع بين أشخاصها وأسمائها، ولا أتحقق شيئاً
من أحوالها وأنبائها. فسبحان المتكفل بأرزاقها، المابين بين طباعها وأخلاقها. فلما سبرت سر الوادي،
تطلعت إلى طلعة شمس بلادي، فلويت زمام الراحلة، وودعت من الطير نجوماً غير آفلة، قائلاً: اللهم أنت
الصاحب في السفر والخليفة في الأوطان، تالياً: " أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا
الرحمن " .

؟

الفصل الحادي والعشرون:

في الكتابة

الكتابة أهّمك الله معرفة فضلها، ولا حرمك نفع صداقة أهلها، أشرف الوظائف والمناصب، وأرفع المنازل
والمراتب، وأفصح صناعة، وأريح بضاعة. قطب دائرة الآداب، وصدر أسرار الألباب، ورسول صادق،
ولسان بالحق ناطق، وسيف تحد بحده المعارف، وميزان يميز التالد من الطارف، تلحق خبر الحاضر بالغائب،
وإليها تنتهي الآمال والرغائب. بما تتم العمة، وتفصل شذور الحكمة. تبرز إبريز البلاغة، وتصوغ لجين
الكلام أحسن صياغة. لطف حواشي رقاعها محقق، وجدولها المسلسل على الريحان يتدفق. قد تحلت بصحة
الوضع والتركيب، وحلت بما حكمت من أعضاء الحبيب: فاللام والألف كعذاره وقده. والجيم كصدغه
المعقرب على خده. والصاد والنون كعينه وحاجبه. والميم منه النائي عن رائد وردده بجانبه:

لا تعد عن فن الكتابة، إنما ... معنى الغنى ومفتاح الأرزاق

واخش البراعة وارجها فهي التي ... عرفت بنفث السم والدرياق

والكتاب عماد الملك وأركان، وعيونه المبصرة وأعوانه، وبهاء الدول ونظامها، ورؤوس الرياسة وقوامها.
ملايسهم فاخرة، وشمائلهم لطيفة، وفوسهم شريفة. مدار الحل والعقد عليهم، ومرجع التصرف والتدبير

إليهم. بهم تحلى العواطل، وتبتسم ثغور المعازل. مجالسهم بالفضائل معمورة، وبندائهم أندية القصاد مغمورة. يهدون إلى الأسماع أنواع البديع، ويزهون الأحداق في حدائق التوشيح والتوشيع. هم أهل البراعة واللسن، وشيمتهم لف القبيح ونشر الحسن. يميلون إلى القول بموجب المدح، ولا يميلون من مراجعة الراغبين في المنح. دأبهم استخدام الناس بالمعروف، وعدم التورية عن العاني والملهوف. ويميلون الكبير ويجلون الصغير، ولا يخلون بمراعاة النظير. لهم إلى الخير رجوع والنفات. وبالجملة فقد حازوا جميع هيا الصفات.

كتبت، فلولا أن هذا محلل ... وذاك حرام، قست خطك بالسحر

فإن كان زهراً فهو صنع سحابة ... وإن كان دراً فهو من لجة البحر بأيديهم أقلام تختلس بلطفها الأحلام. صافية الجواهر، زاهية الأزهار، لينة الأعطاف، ناعمة الأطراف. تبيكي وهي مبتسمة، وتسكت وهي بما يطرب السمع متكلمة. قد اعتدلت قدودها، وأشرقت في سماء البراعة سعودها. أسنتها مرهفة، ومطارفها مفرقة. تجتهد في خدمة الباري، وتبدي من دررها ما يفضح الدراري. تيمس في وشي أبرادها، وتشرح الصدور بعذوبة إبرادها. نشأت على شطوط الأنهار و تعلمت اللحن من إعراب الأطيوار. طويلة الأنابيب، تسلب القلوب بحسن الأساليب. تدهش الناظر وتنجل العامل، ولا ترضى بامتطاء غير الأنامل. الشجاعة كامنة في مهجتها، والفصاحة جارية على هجتها. تبهر بالنضارة نواظر النهار، وتطرز بالليل أردية النهار. إن قالت لم تترك مقالاً لقائل، وإن صالت رجعت السيوف مستترة بأذيال الحمائل. سجدت للطرس، فرفعت إلى أعلى الرتب، وحلت وشببت فلا غرو إذا سميت بالقصب.

قلم يفل الجيش وهو عرمم ... والبيض ما سلت من الأغمد

وهبت له الآجام حين نشأ بها ... كرم السيول وصوله الآساد

يكرع من دواة حالكة الحياض، مشرقة الأدواح والرياض، جنية الأثمار مطعمة الأشجار. ريقها رائق، ونيل نيلها دافق. تكشف غطاءها عن كل معنى أنيق، وتفتح فاهها بكسر العدو وجبر الصديق. شرفها ليس فيه نزاع، وسقطها من أنفاس المتاع. تحنو على أولادها طول المدى، ثم تقط رؤوسهن - ولا ذنب لهن - بحد المدى. سمت إلى المعالي بنفسها، وأعارت المسك السحيق بنفسها. ترشد بنور جمالها، وتنشد بلسان حالها: إن السعادة، حيث كنت، مقيمة ... والبحر أخبار الندى عني روى

كم من عليل مقاصد أبرأته ... فأنا الدواة حقيقة وأنا الدوا

لله أطراسها التي أضاعت بمدادها، وأشبهت عيون العين ببياضها وسوادها، وانطوت الحاسن تحت رق منشورها، وصدحت حمائم البلاغة على أغصان سطورها. صحائف تنوب عن الصفائح، وقراطيس تزف إلى الأسماع عرائس القرائح. ألبسها الحبر أنواباً من الحبر، ودبجها صواب الفكر لا صوب المطر. كم حازت من در منظوم، وعلم لفظ بوشي المعاني مرقوم. وفقر تفتقر إليها أجياد الحسان، وغرر كلم تذهب العقول بسحرها وإن من البيان:

كتاب في سرائره سرور ... مناجيه من الأحزان ناجي

كراح في زجاج بل كروح ... سرت في جسم معتدل المزاج
فاجتهد أعزك الله في طلاهما، واحرص على الدخول في زمرة أربابها، وتمسك بأذيال نبيها، تجد جواداً أو نبياً
أو نبياً. وحسبهم شرفاً أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين، ووصف الكتبة بالحفظ والكرم فقال: " وإن
عليكم لحافظين كراماً كاتين ".

الفصل الثاني والعشرون:

في الحرب والسلاح

منع الجزية أهل الصليب، في عام عاموا منه في بحر عجيب، فأشار الأمير بالتأهب للنزال، وأمر بتحريض
المؤمنين على القتال. فأخذوا في الاستعداد. وجدوا في تحصيل الجياد. فأحببت الدخول في زمرة المجاهدين،
ورفضت قاعدة الذين قالوا: " ذرنا نكن مع القاعدين ". فلما كملوا عدداً وعدداً وتحروا في أهبتهم
رشدًا، ساروا إلى جهة العدو المخدول، وطيور السعد تحوم عليهم ولا تحول. ياله من جحفل تحفل بالشوس،
وكتيبة تميل إلى خضرتها النفوس، وجيش عرمرم، وحميس لهب أسلحته يتضرم، وعسكر جرار، وفيلق يتلو:
" قل لن ينفعكم الفرار ". يهول المنظر، مثار العثير. قوي القلب والجناحين، كم ليدها الطولى من جناحين.
يدي بعيد الآجال، وينفر حتى الوعل والآجال. النصر من جملة آياته، والظفر معقود براياته:

محلّى بالسيوف وبالعوالي ... وبالخلق الموانع والقسي
وفيه عيون درع ناظرات ... إلى الأعداء من طرف خفي
يبحر الحرب منه ساجحات ... تملك حسنها قلب الكمي
ألا لا تخش فيه ليل نقع ... فكم قد حاز من وجه مضي
ينطوي على غضنفر كاسر، وعقاب يصول من النصال بمناسر، وذفر مشيع، وباسل عمر خصمه مضيع،
ويطل ثبت الغدر، وأهش لامنجا منه ولا وزر وشهم أيام عداه مدلهمة، وقدم صمة، وما أدراك ما الصمة؟
من كل مرهوب السطا رحب الخطا ... عود المطا ليث تأبط ارقما

يبدو هاللاً في سماء عجاجه ... ويريك من زرق الأسنة أنجما
أكرم بهم شجعة برزوا للكفاح، واشتملوا على أنواع من السلاح: فمن سيف يفري بحدده، ويأنف من المقام
في غمده. أمضى من أمس، واشرق من الشمس. ينتقل من القراب إلى الرقاب، ويدب النمل منه على
الذباب. يروع ويروق، ويخفي بلمعه البروق، يتمايل كالحمائل، وينجلي في حلي الحمائل. يجتهد في إهلال
النفوس، ويبتسم حيث الأجل عبوس:

ومنهد إن قابلته فريسة ... يقض من جو القراب كأجل
مصغ إلى حكم الردى، فإذا مضى ... لم يلتفت، وإذا قضى لم يعدل
الموت كامن في غربه، والحتف قريب من قربه. إن جرد عاينت عيون الجراد، ورأيته مطبوعاً على الجدال

والجلاد. وإن سل حكم بقطع الأرزاق، وطفق مسحاً بالسوق والأعناق. يرتعد لا من الخوف، ويجل فعله الماضي عن السين وسوف. لم يبرح كارعاً من موارد الوريد، تالياً: " وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ".

حسام، وبتار، وجرار، وصارم ... رسوب، وقرضاب، صنيع، ومخندم
قشيب، وصمصام، وعضب، ومرهف ... قضيب ومأثور، ونصل مصمم
نميل، وهزهاز، وأبيض، قاطع ... رسول المنايا في الدماء محكم
ومن رمح مثقف، أسمر اللون مهفهف. لدن القوام، يبذل الكلام بالكلام له نصل مطعان، وسان غير
وسنان. صدق صادق مارق في المارق. يفرق الجموع ولا يفرق، ويصيب العدا بناظره الأزرق. يستوفي
النفوس وهو عامل، ويضرب حاصل الكماة ولا يجامل. لهدمه ألمع من الشهاب، وكعبه أيمن من طلعة
الكعب، فعله حميد، وظله مديد. سلب اللطف من الأغصان، وتعلم الرعدة من جنان الجبان. خطار عظيم
الخطر، خطي لا يخطيء في قص الأثر. طويل يقصر الأعمار، قناة تجري بدم الأذمار:

وأسم من رشف كأس الدما ... يهتز بالشكر اهتزاز الطروب
يسط في الإشراق بسط الردى ... ويقبض الأرواح عند الغروب
ومن قوس حنانة، سحائب سهامها هتانة، تطلع كالهلال في سماء الرهج، وتسبح في الهواء سبح النون في
اللجج. ضروح تسكن الصريح، عطوف لكن لا على الجريح، تبهر بأبهرها العيون، وتبلغ المنى برسل
المون. لها يد تمح جميل الأيادي، ورجل تسعى في قتل الأعادي. تضم شمل أولاد نوافر، يصلن بلا أنياب،
ولا ظوافر. ذوو أجنحة تروع السباع، مثنى وثلاث ورباع.
عطوى مروح، تريح المنبضين لها ... هتانة لفراق السهم مرنان
أولادها تدرك الأغراض عن كتب ... وناظر السيف قد أخفته أجفان
ومن ترس عنتر، يفل به حد الأبتير. جنة واقية، ومنة باقية. جوب يجوب حرة الحرب، ولا يمل من ملاقة
الطعن والضرب. بريء من الختل والختر، معروف بالحماية والستر.

لله جنة جنة ... لا يجتليها من طغى
من حل تحت ظلالها ... أنجته من نار الوغى
ومن بيضة حسن ملبسها، وزاحم الفلك قونسها، وصفها بديع، وحرم حماها منيع. الرؤوس بما محفوظة،
والنفوس بعيونها ملحوظة، تعلقو على المفارق، وتطرق لهيبتها أجفان الطوارق .

يا رائد الحرب تقنع، واقتنع ... بمغفر أحسن به من مغفر
سامي الذرا عالي الجناح مانع ... ذمامه يوم الوغى لم يخفر
ومن درع ستور، روض وشيها مشور، مضاعفة دلاص، منجية يوم لات مناص، فضفاضة مسرودة، ألوية
النصر بما معقودة. كأنها سراب بقية، أو حباب يطفو على شريعة، أو سلخ أفصوان، أو هب نار لم يشب
بدخان. تنظر بعيون الجنادب وتصير على وخر العوالي والقواضب.

يارب سابعة حبتني نعمة ... كافاتها بالسوء غير مفند

أضحت تصون عن المنايا مهجتي ... وظللت أبدؤها لكل مهند
ومن أشياء يطول ذكرها، ويعز على البليغ البارح حصرها.

ثم إنهم جدوا في الرحيل وتمسكوا بالنص واتبعوا الدليل. إلى أن وصلوا إلى بلد الأعداء " سيس " ، وأرهبوا
بجمعهم الراهب والقسيس. فساروا إلى التزول، وغصت بهم الوعور والسهول. وصاحوهم بما أشقى
مساهمهم. وناوحوهم بما دمرهم وساءهم. ونادوهم بالسنة الحمام، وناجوهم برسائل السهام، ونصبوا آلات
الحصار لكسرهم، وأعدوا ما استطاعوا من القوة لقتلهم وأسرههم، وأحاطوا بأسوار المدينة، وصدموها بمن
في آذانهم وقر عن الوقار والسكينة. فكم تكن إلا ساعة من نهار، حتى تحرك البناء والنهار، وسال السور بعد
أن ماج، وهوت بكواكب المنجنيق منه الأبراج. فدخلوا البيوت من غير الأبواب، وجرعوا أعداء الدين
مذاب العذاب، وحصل أهل الشرك في شرك القبضة، وعجزوا عند قص أجنحتهم عن النهضة، وتمشت في
مفاصلهم حميا السيوف، وصفاح الرغام وجوههم على رغم الأنوف:

لله در فوارس كم أقبلوا ... نحو الحروب، ونافسوا في وصلها
قوم إذا دخلوا معالم قرية ... لعدائهم جعلوا أعزة أهلها

ثم عاجوا لاقتلاع قلعتها، ومالوا إلى محو أسطار بقعتها. فقدموا إليها النقابة، وحسروا عن وجه الاجتهاد
نقابه . وباتوا يطلقون فيها السنة المعاول، ويعرضون عن رأي من قال: " وأين الثريا من يد المتناول "
فأصبحت على الخشب معلقة، ثم عادت بذات الوقود محرقة. فلم تمض عليها إلا نحة غافل، حتى صارت
الأعالي منها أسافل، وأحيط بطاغيتهم وفرسانه، وقبض على أعوانه وأعيانه. ونزعت التيجان، ونكست
الصلبان. وبل غليل السيف، وارتفع الحنف والحيف، وهدمت البيع والكنائس، واستخرجت الذخائر
والنفائس، وأسر النساء والأطفال، وبلغ الطالب من الأموال منتهى الآمال. وأعز الله جنده، وأنجز من
التأييد وعده، ومن بعواند أطفاه الخفية، وجعل هام الملحدين لحوذاً للمشرقية. وما النصر إلا من عنده وهو
المتصدق بجزيل رفته على عبده.

ثم إن العساكر عادوا إلى أوطانهم غانمين سالمين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث والعشرون:

في رمي البندق

برزت يوماً مع رفيق رقيق، يسر بمنادته سر الصديق. لا يخرج عن الواجب. ولا يحجبه عن ذكر الجليل
حاجب. رفيع المقام، صادق الكلام. ينطق بالحكمة وفصل الخطة، وهو لدائرة الفضل بمنزلة النقطة. يجتني من
الرياض أزهار الرياضة، ويعتني بما يشرح الصدر ويزيل انقباضه. ويجب معالي الأمور، ويتقدم إلى كل مقدمة
تنتج السرور. ويتمسك بما كان داعياً إلى المروة، باعتناً على امتثال: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " قد
ألف لخطبة الطير كل خطب مهول، واعتاد خوض المنايا فأيسر ما تمر به الوحول، إلى روضة أنيقة تهدي

الألق، وتضيء في جوانبها وجه الملق. والغيم ممدود الرواق، والطل دمعته يراق، والجو مسكي الإهاب،
والشمس قد توارت بالحجاب.

والأرض وشي والنسيم معنبر ... والماء راح والطيور قيان
فنزلنا بفنائها، وشمنا الأرج من أرجائها، واجتلينا محاسن أزهارها، وطربنا لسماع نعمات أطيافها، وقبلنا
هناكها وهباتها، ورعينا على كلا الحالين كالأها مع نباتها، ورأينا بها عصابة من الرماة، وفرقة تفرق منهم
الأبطال والكمأة فالنا بحضرتهم، وانتظنا في سلك زميرهم، فلما أنست بذراهم، وأنست نار قراهم،
شاهدت قوماً نفوسهم أبية، ومقاماتهم عليية. في وجوههم سيما القبول، ومعهم وصول بالوصول، يرعون حق
الذمام، ويقتنون آثار الكرام، ويرفلون في حلال العفاف، ويسلكون سبل الإنصاف، ويحفظون الحديث عن
القديم، ويشبون الصحيح وينفون السقيم، ويوقرون الكبير، ويرضون من العيش باليسير، ويعتمدون حسن
الوفاق، مع الرفاق، ويعرضون عن أهل العرض لعلمهم أن ما عندهم ينفد وما عند الله باق.

أهل الصباة إن قالوا وإن سمعوا وللسماع كما للقول إعراب
كل يحاول ما يبغى الفلاح به ... فالمبغى واحد، والناس أضراب
فلو رأيتهم وقد أتوا إلى الخطة والنفوا، وحملوا غير متحاملين واصطفوا، وخطرنا في تلك المطارف، يؤمهم
القديم إلى جهة المواقف، مسرعين إلى الأخذ بالثارات، متدرعين الغبار لشن الغارات:
لعاينت قوماً في مقامات عزهم ... وقوفاً، وكلاً منهم قد ترسما
جفوا في الظلام النوم كي يتقدموا ... ومن سهر الليل الطويل تقدما

جماعة طريق حرمهم للنزول قبلة، وحسن شيمهم للعقول عقلة. كم فيهم نقي خد أخجل الدمى ورشيق قد
جبل طرفه على سفك الدما:

شغل الطيور بحسن منظر وجهه ... فتوقفت فأصابها بالبندق
وكم لهم من دعة وشطارة، يقولون ما أهون الحرب على النظارة، ونكتة غريبة يأتي بجرها بالعجب،
ومصطحب شريف وما أدراك ما المصطحب؟ ما أطف سجايهاهم الطاهرة، وأطيب أوقات وجوههم
الناصرة:

في غدوة ومصبح ورواجع ... ومصوغ وخوارج وعشاء
بأيديهم قسي قدودها رشيقة، وملابسها مدبجة أنيقة، من الطين اللازب نجمها، ومن الدمقس المقتل لحمها.
أجاد خرمها الصناع، وهذبت كمأة الرماة منها الطباع. كأنها حواجب مقرونة، أونونات معرقة موضونة،
أو أهلة مشرقة النور، أو مناجل لخصاد أعمار الطيور.

حوامل إذا دنا نتاجها ... تقذف من أكبادها كواكبا
ومعهم للرمي بنادق، أسرع في الإصابة من الفياق، كأنها كرات دورية، لا بل كواكب درية، تمر بهم
عساكر الطيور المختلفة، وهي تختال في برودها المهوفة ولم تدر أن أيدي المنون إليها ممتدة، وأن سيوف
الحتوف لها معدة. إن هبطت مسبقة أصابتها عيون أوتارها المبصرة، وإن هضت محلقة فكرات قسيهم عنها

غير مقصرة، فتسقط عليهم سقوط الندى، وتهوي إليهم مجيبة لداعي الردى:
تهوي إليهم وتأتي ... من كل فج عميق
يا حسن بلر منير ... يسعى لصب مشوق
فبينما هم في وجه عشاؤه أضاء بنور التهاني، ولمعت فيه بارقة بروق الأمانى، والليل قد أرخى أستاره، وأبرز
من النجوم درهمه وديناره، والأفهار سارية وسارحة، والأطيار في الملق ساجحة وسائحة:
نزه الطرف يا أبا الظرف ليلاً ... في طيور أحسن بما من طيور
فوق وجه الماء تسعى وترعى ... كنفوش قد خيلت في ستور
عن لصاحبي إوزة فضية اللون، بينها وبين المرزم في الحسن بون. كأنما خاضت في اللهب، وكرعت من ماء
الذهب، تسبق الريح في المطار، وترتفع إلى أن تغيب عن الأبصار فرماها، في حال بعدها عن العيون،
وصرعها عاجلاً أسرع ما يكون، فحسنت له الجففة وباركت فيه، وأظهر من سر الظفر ما كان يخفيه،
وخرج فرحاً بتحصيلها مائداً وحملها من كان له شاهداً، ورمى لمن قبله وسبقه، وفي بحر الحمد والشكر
غرقه. ثم تواتر الرمي من كل نبيه ونبييل، وتفرقوا من ذلك الوجه على وجه جميل:
كم طائر للأرض أمسى واقعاً ... بنجم قوس للسماء قد سما
من حيث لا يشعر يأتيه الردى ... فاعجب له من صامت تكلم
لم يدر من أين أصيب قلبه ... وإنما الترامي درى كيف رمى
فلما شاهدت من أحوالهم ما راقني، ومن نواهم ما قيدني عن غيرهم وعاقني، أثنت على من بهم عرفني،
وبالطيب المسكي من أنفاسهم عرفني. وقمت ناشراً وصف المواقف والأطيار قائلاً على سبيل التشوق
والنذكار:

ياصاح قم نسعى إلى الأملاق ... فحوها قد ذبت من أشواق
الله ما أحلى حلى أوقاها ... وأملح الولدان في جناها
والجو يجلى في ثياب دكن ... يستلب اللب بفرط الحسن
السحب قد تتابعت وفودها ... وانفرطت على الربا عقودها
وروضة الأنس يفوح طيبها؟؟؟؟ ... وينثني في دوحها رطيبها
ونغمات الطير بالألحان ... تغني عن الجنوك والعيدان
أحسن بما يا سعد من أطيار ... تلوح كالأنجم للأبصار
تخاها إذا سجا جناح الغسق ... كأسطر خطت على وجه الملق
من وارد وصادر، وواضع ... وناهض، وطائر، وواقع
أبيض كالصبح إذ تبلجا ... وأسود محلوك يحكي الدجا
وأخضر مديح اللباس ... وأزهر يزهو على التبراس
مختلفات في الحلى والشكل ... عن حصرها يعجز أهل الفضل
لكنها جليلها معروف ... وهو لدى أربابه موصوف

فهاكها بعد عشر أربع ... كعمر بدر التم حين يطلع
قد جمعت أوصاف كل طائر ... مبيبات المجد والمآثر

فالتم يبدو في لباس يقق ... كأنه مركب من ورق
في الرأس منه نقطة تحكي السبح ... من الرماة نحوه تصبو المهج
والكي شيخ أبيض جلابه ... معلق في عنقه جرابه
منقاره كحربة من أسل ... وظهره محدب كالجل
وللاوز نعمة الأوتار ... إذا بدت تختال في المطار
فضية منقارها من عسجد ... يا سعد في حبي لها كن مسعدي
واللغلق المسكي كالإوز ... في الحسن والوصف وفرط العز
لكن له مثل اللجين غره ... تدني لمن يصصره المسره
وحبذا الأنيسة الملونة ... لباسها المنقوش ياما أحسنه
يبكي عليها الصب بالدموع ... لأنها عزيزة الوقوع
خذ يا أخوا الرمي صفات الحبرج ... يحكي القطا في لونه المدبج
يألف أيام الربيع الزاهره ... فيجتبي ويجلي أزاهره
والنسر راميه شديد الأسهم ... لأنه عال كنسر الأنجم
أقرع ذو مخالب حداد ... يذكر عصر تبع وعاد
وبعده وصف العقاب الكاسره ... تلك التي للوحوش تغدو آسره
مغيرة ظافرة، أظفارها ... بالصيد أدنى الردى منقارها
قم نجتلي الكركي تحت الشفق ... فقد بدا في ثوب خز أزرق
ومد جيداً ياله من جيد ... وأطرب الأسماع بالتغريد
إذا بدا الغرنوق في الفضاء ... شبه بالعمامة الدكنا
كأنه الكركي في لباسه ... سوى سواد عنقه وراسه
والضوع مبيض شبيه الفلق ... أطراقه مصبوغة بالعلق
يختال في الحمرة والبياض ... كخذ من قد زاد في الإعراض
ومرزم يا حسنه من مرزم ... كأنه قد خاض في بحر الدم
أبيض وضاح طويل العنق ... راميه قد فاز بفضل السبق
وتلوه السيطر المسموم ... أبيض ضخم وصفه معلوم
يسكن في الأماكن العليه ... وطعمه الحية والسحليه
وأقبل العناز بعد الجمع ... أسود ذا صدر كضوء الشمع
قد جمع الضدين صباحاً ودجا ... من يرمه يعد من أهل الحجا

وهذه تكملة الأطيّار ... أعني طيور الواجب المختار
ترفل في محاسن الملابس ... وتنجلي في الطرس كالعرائس
كأنما تنظرها حقيقة ... ساجحةً في غلرها الأنيقة
لا زلت ترمي الطير والأعادي ... بأسهم ذي ألسن حداد
ودمت تلقى السعد في مسيركا ... حتى تعد الكل من طيوركا
ما سهر الليل رماة البندق ... وقبل الطير حدود الملق

الفصل الرابع والعشرون:

في الكرم والشجاعة

مررت ببعض أحياء العرب، في يوم طما بحر آله واضطراب، فلمحني شخص من بعيد، حوله جماعة من
الخدم والعبيد. فأرسل واحداً منهم في طلبي، فلما دنوت منه رحب بي وأحسن منقلي، ورفع قدري ومنزلي،
وأعذب موردي ومنهلي. وأعز جانبي، وأترع مشاربي. وأجزل نولي وعظم قومي وقولي. وأتحفني باللطائف،
وأمدني بكل ساعٍ من البر وطائف. وأضرم نار القري، وسقى بدماء البدن ظامئ الثرى. ومنحني من الجود
بأنواع مختلفة، وأسدى إلي المعروف من غير معرفة، وعقر النعم، وغمر بالإنعام، وتجاوز الحد في الكرم
والإكرام. وعم بفضل البسيط وإحسانه الشامل، وآلى أن لا أرحل عن حيه مدة شهر كامل:
وحقق آمالي وقرب مجلسي ... وأرشفني كأس النوال مروقا
وقيدني بالمكرمات، أما ترى ... لساني له بالشكر أصبح مطلقا

ياله جواداً لا يلحق، وغيدقاً لا يطرق حين يطرق، وقلمساً بعيد المدى، وخضراً تفيض أنديته بالندى،
وصنديداً سخي البنان، وسמידعاً لا تبرح ربوعه ربيعاً للضيفان. وهماماً تهمي سحائب جوده، وأريجاً لم يزل
مرتاحاً ملافاة وفوده. يطوى حاتم الطائي عند نشره، ويفنى هرم بن سنان لبقاء شارح ذكره. ويطوف كعب
بن مامة بكعبة حرمه، ويخلد به خالد القشري ليقبّس من كرمه وينقص لديه معن بن زائدة، ويلنقط يزيد
بن المهلب في هلبة الزمان فرانده:

مفيد ومتلاف إذا ما سألته ... تهلل واهتز اهتزاز المهند
متى تأنه تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نارٍ عندها خير موقد
جزيل المروة شريف الأبوة. كريم النجار، جليل المقدار، علي المهمة، طليق الوجه عند الملمة، ويحز الجد
ويذهب الذهب، ويتبدئ بالإحسان إلى العفاة قبل الطلب. ظلّه ممدود، وجوده موجود، وفناؤه مقصود،
وباب منزله عن الواردين غير مردود. يعطي من لا يرجوه، ويفصل قضية المتقاضين وعده على أحسن
الوجوه. كم أولى من أيادي، وأنجز إيعاد الأعادي، ومنح برأ، وكف عن نزيله ضراً. وأجرى نيل النوال،
وأماط عن المجتدي سوء السؤال:

علم المزن الندى حتى إذا ... ما حكا، علم البأس الأسد

فله الغيث مقر بالجد ... وله الليث مقر بالجلد

ولقد شاهدت منه في مدة مقامي، يكبو دون منتهاه جواد كلامي، من كرم زهت كرومه، وشجاعة طال أسلها وزهت نجومه، ونعم تجل عن الحصر، ونجدة مؤذنة بالنصر، وسماحة وحماسة، وتدبير وسياسة، وثبات أقدام وصبر وإقدام، ولسان لذوي المسألة مجيب، وصدر لمن ورد وصدر رحيب. وهبات طاب هبوب نسيمها ومنح راقت جنات نعيمها، وسخاء بجره زائد، وصلة نفعها على من وصل إليه عائد، وأخلاق حسنة، ومناقب تقصر عن وصفها الألسنة:

وعدل أباح الشاء أتلةة الفلا ... تلس كلاها، والذئاب رعاء

وفضل حباه الله سبحانه به ... والله وضع الفضل حيث يشاء

لله نسبه الذي علا على الفلك، وفتحت السعادة له الأبواب وقالت هيت لك، وبيته الذي رفع المجد قواعده، وأطلع الرفد في آفاق الإنفاق مواعده، وقومه الذين زكت نفوسهم، وأينعت في حدائق العطايا غروسهم، وملكوا أعنة المعالي، ورفعوا خيام خيمهم بأطراف العوالي، يسير الفخر تحت ألويتهم، وتتعطر المجالس بطيب أنديتهم. يقتحمون عتبة الوغى صابرين على الطعن والضرب، ويفضلون مقارعة كمامة الحرب، على معاقره كميته الشرب.

طالما كهنوا أكف العدى، ووجد أبناء السرى على نارهم هدى، وشتوا شمل الأبطال، وجروا على تاج المجرة فضل الأذيال:

إن ترد خبر حالهم عن يقين ... فأتمهم يوم نائل أو نزال

تلق بيض الوجوه سود مثار الذ ... قع خضر الأكناف حمر النصال

وبعد فمحاسنه لا تحصى بعد، وأوصافه لا تدرك لأنها لا تنتهي إلى حد. والإسهاب يضع ممن زاد طولاً، واختصار القول أجدر وأولى.

فلما انقضت مدة أليته وقرت عيني بما عاينت من لطف محبته، وآن للمقيم أن يرحل، وللضيف العائد بالفرائد أن يخبر وإن لم يسأل، استأذنته في الطعن، وأعلمته باشتياقي إلى الوطن. فأذن لي مكرهاً وأنشدني متأوها:

تفضلت الأيام بالجمع بيننا ... فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد

جعلت وداعي واحداً لثلاثة: ... جمالك، والعلم المبرح، والمجد

ثم إني سرت شاكرًا بره المألوف، ناشراً ألوية معروفه المعروف، حامداً إنعامه الذي شمل القريب والبعيد، مادحاً شخصه الذي لم يشك وحشة قط وهو في الدنيا وحيد، مجرياً ذكر ما حواه ثم عزم العزائم مثنياً على أياديه الجميلة ثناء الروض على الغمام.

؟

الفصل الخامس والعشرون:

في العدل والاحسان

إن الله يأمر بالعدل والإحسان، فبادر إلى امتثال الأمر أيها الإنسان، وانشر أعلام الإنصاف، واتصف بمحاسن الأوصاف، وارتق بالرعية، وأكثر من البر إلى البرية، وابسط رداء المعدلة، وساو بين الخصوم في المنزلة، واسمح بجبرك وخيرك، ولا تظلم الناس لغيرك.

واعلم أن العدل حارس الملك، ومدبر فلك الفلك، وغيث البلاد، وغوث العباد، وخصب الزمان، ومظنة الأمان. وكبت الحاسد، وصلاح الفاسد، وملجأ الخائر ومرشد السائر، وناصر المظلوم ومجيب السائل والخرم. به تطمئن القلوب، وتنجلي غياهب الكروب، ويرغم أنف الشيطان، وترتفع به قواعد السلطان. عليه مدار السياسة، وهو مغن عن النجدة والحماسة:

عن العدل لا تعدل وكن متيقظاً ... وحكمك بين الناس فليك بالقسط
وبالرفق عاملهم وأحسن إليهم ... ولا تبدلن وجه الرضا منك بالسخط
وحل بدر الحق جيد نظامهم ... وراقب إله الخلق في الحل والربط
وإيك والظلم فإنه ظلمة، وداع إلى تغيير النعمة وتعجيل النقمة. يقرب الخن ويسبب الإحن، ويخلي الديار، ويمحق الأعمار، ويعفي الآثار، ويوجب المثوى في النار، وينقص العدد، ويسرع يتم الولد، ويذهب المال، ويتعب البال، ويجلب العقاب، ويضرب الرقاب، ويقص الجناح، ويخص بالإثم والجناح، والمظلوم أنفاسه متعلقة بالسحاب، ودعوته ليس بينها وبين الله حجاب:

كن منصفاً واسلك سبيل التقى ... فالبغي ليل جنحه مظلم
واجتنب الظلم ولا تأته ... والله لا يفلح من يظلم
وأيقظ عيون حزمك وشيد مباني عزمك، واحتم بالاحتمال، فهو أنصر لك من الرجال. وزين مجلسك بالمعيتك، وسس نفسك قبل رعيتك وامزج الرغبة بالرهبة، واراع لأوليائك حقوق الصحة، وادفع بالتى هي أحسن، وأت من المعروف بما أمكن:

واصنع جميلاً ما استطعت فإنه ... لا بد أن تتحدث السمار
وتجاوز عن الهفوات، وادراً الحدود بالشبهات. وأنجز الوعد وأخلف الوعيد، وقيد لفظك فليدرك رقيب عتيد، وتفكر في العواقب، والحظ الأخرى بعين المراقب:

من لم يفكر في العواقب ناظراً ... فيما يؤول إليه آخر أمره
خسرت تجارته وضل عن الهوى ... ورأى مساعيه بطرف أمره
وعليك بالحلم فإنه معدن السرور، وعقال الفتن والشرور. يبلغك من المجد قاصيته، وتملك به من الحمد ناصيته. مطية وطنية وعطية يالها من عطية، وخصلة محمودة، وشيمة ألويتها بالسعد معقودة. يسهل الأمور، ويقي كل محذور. همة صاحبه عليية، ومرآة متعاطية جلية. لا يظهر إلا عن صدر سليم:

قابلت بالإحسان من ساءني ... ميلاً لتحصيل الثناء المقيم
وقمت بالواجب من شكره ... إذ عرف الناس بأني حلِيم

واعف عن ظلمك، وصل رحمك، وارحم حرمك، وأطف بالأناة جمر الغضب، واحذر من غاسق الغيظ إذا
وقب، وصن عرضك عن الأدناس، وادخل في زمرة العافين عن الناس، فهم أهل الفضل يوم القيامة،
والمقلدون بكرم الكرامة، يرفلون في أثواب الثواب، ويدخلون الجنة بغير حساب. ولا تعج عن سنن
السنن، وراقب الله في السر والعلن، واتبع في الإحسان طريق من أفلح به المؤمنون، والزم التقوى: " إن الله
مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " .

الفصل السادس والعشرون:

في الشكر والثناء

شكر المنعم واجب، والثناء على المحسن ضربة لازب. فاشكر من وضع الخير لديك، وكن مثنياً على من
أحسن إليك، حيث أجاب سؤالك، وحقق آمالك، وصدق ظنك، وأضحك سنك، وأتخفك بكرام كرمه،
وأطلع في أهلك نعائم نعمه، ولبى دعوتك، وروض عدوتك، ورعى جانبك، وبلغك مآربك، وقوى معينك
وأيد معانيك، وأسكنك من العليا قباً، وفتح لك إلى دار السعادة أبواباً:

وأولئك الجميل بغير مطل ... وعن وجه الندى رفع الحجابا

وبل ثراك بالجدوى فحق ... عليك تصير التقريظ دابا

إن قصر عن المكافأة بنانك، فيطل بنشر الشكر لسانك، فبه تدوم النعم، وهو داعية الجود والكرم. كثرت
تبعث على بذل الألو، وقلته تزه في اصطناع المعروف. فاجتهد في إقامة شعاره، واحتفل برفع علمه
وإعلاء مناره، وإياك والتقصير في حق من شملك بفضل الغزير، وقم بواجب من قللك المنه، ولا تجعل
الاعتذار بعجزك من غير حرص جنة.

أطلق لسانك بالثناء على الذي ... أولئك حسن غرائب ورجائب

واشكره شكر الروض حياه الحيا ... كيما تقوم له ببعض الواجب

أيها المتطول بأيادي، المتفضل بما غمر من غواديه، الجائد بأمواله، الزائد نبيل نواله، المرتدي بأثواب الجلال،
المبتدئ بالعطاء قبل السؤال، لو استطعت تمثيل حمدك ومدحك، واعتدادي بإفضالك العميم ومنحك،
لأبرزته في صورة تروق النواظر، وأفرغته في قالب يسر القلوب والخواطر. لقد أترعت مواردنا ومناهلنا،
وحملني من حقائب الجود ما أثقل كاهلي، وأرحت سري بهبات هباتك، وقطعت أملي إلا من موارد
صلاتك:

كم من يد بيضاء قد أسديتها ... تنني إليك عنان كل وداد

شكر الإله صنائعاً أوليتها ... سلكت مع الأرواح في الأجساد

إلام تنشر علي ملابس العوارف؟ وحتام تهدي إلي نفائس اللطائف؟ وتلحظ بعيون العناية، وتمد ظل الرعاية،
وتصل أسباب الصنائع، وتأتي من الإحسان بما عهدته محفوظ، ونشره ضائع، من غير خدمة سابقة، ولا حرمة

لهدى العواطف سائقة.

طالما غنيت بالغناء من خيرك، وألمتني لهاك عن الاجتماع بغيرك، وقابلتني عطايك بجزرك، ومنحتني سماحتك من كثرها الوافر بخالص تبرها:

فلأشكرنك ما حييت وإن أمت ... فلتشكرنك أعظمي في قبرها

صيرت لساني كليلاً بعد حدثه، وأعدت قلمي جافاً بعد غزارة مدته. فها أنا لا أطيق أداء بعض حقك، ولا يخرجني فرط برك عن عهدة رفق. وكلما فرغت من شكر يد كثر مددها، وصلتها بأياد جريئة أعد منها ولا أعددها. فلا تحدث لي بعدها زيادة، وارفق بعبدك فقد ملك العجز قياده:

أنت الذي قلدتني نعماً ... أوهت قوى شكري فقد ضعفا

لا تسدين إلي عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا

وماذا عسى مادحك أن يقول، يامن فتن بحسن مناقبه العقول؟ المتكلم يقصر عن وصفك باعه، والبلغ يعجز عن حصر فضلك يراعه. والعالم يغرق في بحرك، والناظم يلقط جواهر نثره، على أن كلاً منهم لو استعار الدهر لساناً، واتخذ الريح في نقل أخبارك ترجماناً، أدركه الملال ولم يصل إلى غايتك، وأعيه الكلال دون الوقوف عند نهايتك. فالله يتولى من مكافأتك ما هو أبلغ من شكر الناس، ويمتدح الأولياء ببقاء ذاتك التي جلت عن النعت والقياس.

الفصل السابع والعشرون:

في الهناء

صحيني شخص من الكتاب، له رفيق يدعي معرفة الآداب. فجاءني يوماً من "ديوان النظر" قائلاً: كان رفيقي غائباً ثم حضر، وقصدي إملأء شيء في هذا المعنى، ولست أعرف لروض الأدب سواك مزناً. فقلت له: اكتب: ورد البشير بما أقر العيون، وسكن هواجس الظنون، وشرح الصدور وأبهجها، وألجم خيل السرور وأسرجها، من إياب مولانا مصحوباً بالسلامة، مالكاً قياد الفضل وزمامه. فتلقيه العبد بمزيد القبول، واعترف بطيب عرفه الضائع قبل الوصول:

وتقاسم القوم المسرة بينهم ... قسماً فكان أجلهم حظاً أنا

ولم يزل مدة غيبته مستديماً لذكره، مشاهداً له وإن شط المزار بعين فكره، متشوقاً إلى أيامه التي راق نعيمها، مرتقباً نجوم لياليه التي رق كخلقه نسيمها:

ليالي لم تحذر حزون قطيعة ... ولم تمش إلا في سهول وصال

إلى أن جمع الله به شتات الأمور، وألف بمقدمه من الأانس كل نفور، وأعاد بدره إلى منازل سعوده، وفطر قلب حسوده بصعدة صعوده. فله الحمد على نعمه التي لا تعد، وكرمه الذي تجاوزت سيوفه غاية الحد.

وهو المسؤول أن يعيده من شر من حسد وطعن، ويكأله بعينه التي لا تنام إن أقام أو ظعن.

ثم إنه وافاني بعد مدة، فحمل يراعه ومن النقس مده، وقال: إن رفيقي قد أبل من المرض، وما يخفى عن

مثلك - أيدك الله - سر الغرض. فقلت له اكتب: الحكمة أطال الله بقاءك، وأدام صحتك وشفاءك، تقتضي المنح والحن، وتوجب الفرح والحزن، ليتذكر أولو الألباب، وتتأكد أسباب الثواب. ولقد معني لذيد الرقاد ما حصل لمولاي من الافتقاد، وأسكرني بخمر التحير، ما حصل لمزاجه اللطيف من التغير. يالها غفلة من الدهر صدرت، وهفوة على غرة من الأمل ظهرت، حيث أزعج كريم جسده، وعلا على ذخر الملك وسنده، وارتقى من الرياسة إلى رأسها، وامتطى ذروة كاشف غمها ومزِيل بأسها، وبالجملة فما اعتل إلا لأنه كالنسيم لطفًا، وما جاورتَه الحمى إلا أنه كالأسد وشفًا: لا تخش من ألم ألم مودعاً ... يامن بسيط العمر منه طويل

إن التي يدعوها الحمى على ... أسد الشرى، وكذا النسيم عليل وأنا أحمد الله على لبسه أثواب الصحة، ودخوله من العافية منزلاً مهد البرء صرحه. وأسأله أن يفيض عليه سحائب نواله الزائد، ولا يجوج شخصه المغرى بالصلة إلى عائد. ثم إنه جاعني بعد حين، وأسأله تخبر أنه من الفرحين. فقال: إن رفيقي ولي الوزارة، فهل من رسالة تسفر عن حسن السفارة؟ فقلت له اكتب: أيد الله مولانا الوزير، وأفاض على الكافة فضله العزيز، وهنأه بهذه الرتبة التي أوضح وجه مذهبها، وبلغها بتحرير قلمه المهذب نهاية مطلبها، وأنمي بتدبير أحوالها، وقرر على القواعد المرضية أحوالها:

فلم تكن تصلح إلا له ... ولم يكن يصلح إلا لها هذا ما كانت تنتظره النواظر، وتشهد بوقوعه خطرات الخواطر، وأسند الأمر إلى أهله، وأجلب الخير بجذبه ورجله، وأصاب الدهر فيما أمضاه من فعله، وانتهت القوس إلى باربيها، وتمكنت الرعايا بعرا أمانيتها، وزفت عروس الوزارة على كافلها وكافيتها. ما أحق هذه البشرية بأن تبدي الرياض من ورودها لورودها نشراً، وتقميد الأغصان وتقبل، ويتخلق الكون بزعران الأصيل، ويتقلد الأفق بعقود نجومه الزواهر، وتنطق بشكرها ألسن الأقلام من أفواه الخابر:

سرت بك الدنيا وسكانها ... وامتألت بشراً صدور الصدور وأجرت الأعداء سحب البكا ... للحزن وافترت ثغور الثغور فالحمد لله ثم الحمد لله، والشكر له على ما أولاه، من إسباغ نعمه المألوفة، ومعروف أياديه المعروفة، وإليه الرغبة في إدامة سروره المتوالي، وإدارة فلك سعده على ممر الليالي. ثم إنه قدم إلي بعد أيام، وقال: إن الوزير بشر بغلام، فأمل علي زادك الله رفعة، ما أشنف به من الهناء سمعه، فقلت له: أكتب: أهلاً بطلوع نجم السعادة، ومرحباً بظهور هلال السيادة، غصن الشجرة الوارف ظلها، العالي في جنات الفضائل محلها. أكرم بها من شجرة أصلها ثابت، وفرعها النامي كل طرف إليه باهت. توثي أكلها كل حين، وتمنح برها الغادين والرائحين.

ياله مولوداً راق نضرته، وتبسمت من خلال المكارم زهرته، واهتزت لقدمه قدود العوالي، وارتاحت لمورده نفوس المعالي، واستشرفت له صدور الحافل، وتهيأت لخطبته عقائل المراتب والمنازل، فتبهن به أيها الوزير، وتمل بمشاهدة صبحه المنير:

وابشر فقد وافاك يوم رزقته ... حظ بتخليد السرور زعيم
لا زالت النهاني بكعبة حرمك طائفة، ولا برحت المسرات على جنابك متضاعفة، ودمت راوياً حديث
الجود عن أصلك ياسناده، جامعاً بين كرم طارف نجلك ويمن تلاده:
وبقيت حتى تستضيء برأيه ... وترى الكهول الشيب من أولاده
فلما فرغت من نقشها، وتأمل محاسن رقصها، نشر أعلام الثناء والشكر، وتمايل طرباً كالتمل من السكر،
واعتذر من التثقل، واستغنى من القال والقليل. ثم ودعني وبان، ولم اجتمع به إلى الآن.

الفصل الثامن والعشرون:

في الرثاء

مات لمن يعز علي ولد، لم يبلغ من فصاله منتهى الأمد. وكنت أستحليه واستجليه، إذا حصل الاجتماع بيني
وبين أبيه، فأكثر - وهو معذور - من الوجد عليه، فكتبت على سبيل التعزية إليه:
برغمي أن أعنف فيك دهرًا ... قليلاً فكره بمعنفيه
وأن أرمي النجوم ولست فيها ... وأن أظأ التراب وأنت فيه
الدنيا مد الله في عمرك وصبرك، ومحى آية الخزن من صحيفة صدرك، دار تمكر بسكانها، وتغلر بأهلها
وجيرانها. كم أفنت قروناً، وأسخت بالبكاء عيوناً، ونثرت عقداً، وأضرمت وقداً، وأخلقت جديداً،
وأخذت من والد وليداً، وفرقت شمل الأحباب، وألبست الأتراب أودية التراب:
وكم قد روعت قلباً ... وسأقت نحوه حزنا
وملت بعد أن مالت ... وأذوت بالردى غصنا

ولا كغصن دوحك الرطيب، وزهرة روضك الخصب، الذي عز فقده، وهتك ستر المدامع بعده، وأحيا
بموته الأسف، وشوى الأكباد على جمر التلف. ياله زائراً ما سلم حتى ودع، وهاجراً خشع القلب لصدده
وتصدع، وطفلاً ذهب ميراً من الذنوب والأوزار، وعصفوراً طار إلى الجنة وتركنا نقلب في تلهب النار،
وديناراً أولعت بصره أيدي الزمان، ودرة نقلها الدهر إلى صدف الأكفان، وهلالاً عاجله الخسوف قبل
الإبدار، ونجماً أخفاه إسفار صبح الأقدار:
يا كوكباً ما كان أقصر عمره ... وكذاك عمر كواكب الأسحار
وقد علم الله شوقي إليه، وشلة قلقي وحرقي عليه، وغمي لمغيبه بعد إشراقه، وفرط بشي وحزني لفراقه، وما
سال من دموعي وساح، وأصاب جوارحي من الجراح:
موت الصغير مصيبة غاراتها ... ما تنقضي، وكميها لم يقهر
قسماً بمن يحيي رفات الخلق ما ... فقد المهشيم كفقده روض مزهر
ولقد أجرى ماء العيون معيناً، وكنا نرجوه معيناً. أعاد أيامنا سوداً وكانت به بيضاً ليالينا. لو أن الحتف

يقبل الفداء، أو أن الحمية ترد الردى، لفديناه بالأموال والأرواح، وخصنا دونه بحار السيوف والرماح، ولكنه الكأس الذي يستوي في شربه الصغير والكبير، والسييل الخنوم سلوكه على المأمور والأمير. فإننا لله وإنا إليه راجعون، وبحكمه راضون، ولأمره طائعون، له ما أعطى وله ما أخذ، وهو الذي يرسل سهم المنية ولولاه ما نفذ.

وأنت أبقاك الله أولى من للقضاء سلم، وسكن منبسط النفس ولو بأنياب النوائب تكلم، وقابل القدر بوجه الرضا لا الغضب، والحمد لله على كل حال إن وهب أو سلب، فالجزع لا يجدي ولا يفيد، والماضي لا يعاد إلى يوم الوعيد، والأجر موقوف على الاحتساب، والله عنده حسن الثواب، فادخره للأخرى فالدنيا متاع

الغرور " واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور " يا راحلاً أذهب عنا السرور ... وكادت الأرض بنا أن تمور ويا هاللاً بالخسوف احتفى ... من قبل أن يدرك شأؤ البذور إن كنت قد فارقت أهلاً فكم ... حولك ولدان حسان وحرور جاورت من بعدك من ساعني ... ليهنك الجار الذي لا يجور ويلاه من بدر رفيع مضى ... تجارة العاني به لن تبور شق الجيوب القوم لما سرى ... لو أنصفوا شقوا عليه الصدور ما كنت أدري قبل دفتي له ... أن الدراري في الصحارى تغور هفي على طفل فوادي له ... نعش ودمع العين غسل طهور هفي على زهرة روض زهت ... فعوجلت بالقطف دون الزهور هفي على غصن ذوى قبل أن ... يبدو لنا من نوره الغض نور آهاً لذك الوجه كيف انطوت ... آياته الحسنى ليوم النشور آهاً لدر قد غدا تالياً ... في صدف اللحد جوار القبور آهاً لم الهجر حلو الحلوى ... الوجد حق فيه والصبر زور والله ما عجل يوم النوى ... إلا لنحظى في غد بالأجور ما هذه الدنيا وسحقاً لماتلهي بهيلاً متاع الغرور تمحو بكف الخنف رسم الورى ... لما اغتدوا في رقها كالسطور ما تأتلي من غير خوف إلى ... دار البلى تنقل أهل القصور كم من رحي للموت فيها، على ... ضائع أعمار البرايا تدور أحنى علينا الدهر في أخذ من ... كنا نرجيه لسد الثغور يا دهر بالإمرة كم تعتدي ... ألا إلى الله تصير الأمور

الفصل التاسع والعشرون:

في الحكم

العلم نعم السمير، والعقل بشير بالخير يشير. اجتهد في طلب العلوم، تنفرد بما يرفعك إلى النجوم. انجد
يبدل اللها، والفضل بالأدب والنهى. من صادق العلماء زها بدره، ومن رافق السفهاء وهي قدره. العلم
ثمرته الإنصاف، والزهد نتيجه العفاف. التقوى أفضل حلة، والمروءة أجل حلة. الحق سيف قاطع، والحلم
درع مانع. الزم الحجا فهو أطف سانس، ولا تعدل عن العدل فهو أحفظ حارس. العقل أحسن المواهب،
والجهل أقبح المصائب.

العقل أحسن معقل فاهرع إلى ... أبوابه العليا تتل كل العلا

واعلم بأن الشيء يرخص كثرة ... والعقل إن كثرت حواصله غلا

من رضي بالقدر، وفي شر الحذر، اليأس يعز الأصارغ، والطمع يذل الأكارب، حاسب نفسك تسلم، ولا
تقتحم الأخطار تندم. من سره الفساد في الأرض ساءه طول التعب يوم العرض. لا تقل إلا ما يطيب عنك
نشره، ولا تفعل إلا ما يسطر لك أجره. السعيد من اتعظ بماضي أمسه، والشقي من ضن بخبره على نفسه.
لا تغرنك صحة بدنك اليسيرة، فملة العمر - وإن طالت - قصيرة. من لم يعتبر بالمساء والصبح، لم يرتدع
بقول اللوام والنصاح. من قنع برزقه استغنى، ومن صبر نال ما يتمنى.

إذا الرزق عنك نأى فاصطبر ... ومنه اقتنع بالذي قد حصل

ولا تعب النفس في جلبه ... فإن كان ثم نصيب وصل

من أنس بالآخرة، فاز بالملايس الفاخرة. ومن رفع حاجته إلى الله نجحت، ومن تمسك بغيره خسرت تجارته
وما رجت. من لم تفسد شهوته دينه، وصل إلى الأماكن المكنية. أبصر الناس من نظر إلى عيوبه، ولجأ إلى ربه
في التجاوز عن ذنوبه. أرفع الأعمال ما أوجب شكراً، وأنفع الأموال ما أعقب أجراً. الدنيا ظل زائل،
والشبية ضيف راحل. من غالب الحق غلب، ومن استهان بالدين سلب. لا تخل نفسك من فكرة، تديني من
طرفك وقلبك قراراً وقره. عد عن طاعة هواك، واحذر من مخالفة مولاك:

لا تتابع هواك ياذا المعاصي ... واجتنب ذلة الهوى والهوان

أحق الناس من أطاع هواه ... وتمنى على الإله الأماني

من وثق بالله أغناه، ومن خرج عن حكمه عناه. من لزم شأنه دامت سلامته، ومن حفظ لسانه قلت ندامته.
الصمت يرفع لك المنار، ويخلع عليك ثوب الوقار. الزمان لا يبقى على حال، والدنيا طبعها الغدر والملال،
تفتن بزهرتها الداوية، وتخدع بزينتها المتلاشبية. لا تفن عمرك في المعاصي، وخذ حذر من مالك النواصي.
إياك وكثرة الكلام، فإنها تنفر عنك الكرام. ما سعد من شقي صاحبه، وما عزت من ذلت أقاربه. من لزم
شكر الإحسان استدام عدم الحرمان. لا تودع شرك غير صدرك، ولا تتكلم بما يجوجك إلى إقامة عذرك:

تفرد بحفظ السر وحدك لا تتق ... إلى أحد فيه ولو كان من كانا

فإنك أن أودعت شرك عاقلاً ... يزل وإن أودعته جاهلاً خانا

من بسط يده بالجوود، خرج من العدم إلى الوجود. من علا علم شيمته، غلا مقدار قيمته، استر براً يظهر من
يديك، وانشر معروفاً يسدى إليك. من أحسن إلى جاره أطلع قمر الحمد في داره داره، ومن جاد لطلب

الجزاء فليس بكريم، ومن صفح لعدم القدرة فليس بحليم. أحسن الخلق ما حثك على المكارم، وأوضع الطرق ما كففك عن المحارم. عي تسلم بميلك إليه، خير من نطق تدم عليه. من قل عقله كثر قوله، ومن زكا أصله تواتر طوله. توق جناية اللسان، ولا تأمن من سطوات الزمان، واستعد من شر أفعالك، وتحل بالصدق في جميع أحوالك.

الصدق يورث قاتليه مهابة ... سر نحوه نعم الطريق طريقه
واحفظ به عهد الصحاب فإنه ... من قل منه الصدق قل صديقه
لا تعج عن سبيل الصواب، ولذ بجانب رب الأرباب، واسع إلى باب من بيده الملك وهو على كل شيء
قدير، واخش من يعلم السر وأخفى، " إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير "

الفصل الثلاثون:

في المواعظ

أعلمني من أتق بنقله، ولا أشك في معرفته وفضله، بقدم بليغ من الوعاظ، يبرز دقائق المعاني في جليل الألفاظ. وأشار بحضور مجلسه، والاهتداء بضوء قبسه، فقبلت الإشارة، وانتظمت في سلك السيارة . حتى أفضينا إلى ناد فسيح، لسان مناديه فصيح، قد جمع بين الغني والفقير، واشتمل على المأمور والأمر. وإذا بشيخ قائم في بهرة حلقتة، يفتن بسحر الكلام قلوب فرقته . فسمعتة يقول: أيها الناس، ما الموت بساه ولا ناس، فتأهبوا لخلوله، واستعدوا له قبل نزوله، وحصلوا الراحلة و الزاد، وردوا العاصي إلى الطريق فقد زاد، ولا تعدلوا عن محجة الحجا، واقفوا دعوة المظلوم في ظلام الدجا، وامنوا بالقدر خيره وشره، وارضوا بالقضاء حلوه ومره، وأفرغوا ذنوب الذنوب وافرغوا إلى علام الغيوب، وامنعوا من الأمل ما كان جموحا، وتوبوا إلى الله توبة نصوحاً:

وتجنبا سيق الخطا فلکم هوی ... رب الهوی من حصنه وعقابه

وتمسكوا بجانب قنوی ربکم ... كي تسلموا من خزیه وعقابه
وإياكم والدنيا فإنها تمكر بصاحبها، وتمدي إلى أقاربها سم عقاربها. عامرها خراب، وغامرها سراب. أمدها قصير، وإلى الفناء تصير. صفوها كدر وجرحها هدر، والخاطر بما على خطر. لأنهما لا تبقي ولا تذر، بحرهما العميق، كم له من غريق. فاركبوا فيها من التقى فلکا منيعة، واجعلوا شراعها التمسك بعرا الشريعة، لعلكم تبلغون الساحل، ويقدم بشير بشركم الراحل، وهي قطرة فاعبروها ولا تعمروها، واخشوا عيون شركها المفتوحة لكسرکم واحذروها:

مجاز حقيقتها فاعبروا ... ولا تعمروا، هونوها قن

فما حسن بيت له زخرف ... تراه إذا زلزلت لم يكن؟

ابن آدم ما أكثر حرصك، وشرك ومرضك، وأجزل حرصك وأشرك، وأقوى على من دونك ظفرك،

وأضعف بمن فوقك ظفرك، وأحجل من يؤنّبك، وأتعب من يتعبك، ووثبك إلى صيد الحرام، وأشد شرهك على الحطام. أما علمت أن الشره، في عين الرجل مره؟ لا بالقليل تقنع، ولا من الكثير تشبع، ولا إلى المواعظ تصغي، ولا تبغي أنك لا تبغي. أنفاسك معدودة وأوقاتك محدودة، ومالك عارية مردودة، وذاتك الموجودة عن قريب مفقودة:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوماً أن ترد الودائع ويحك أتحسب أنك تترك سدى؟ أو أن الحقوق تبطل بطول المدى؟ كلا يا كليل الذهن، لتبعثن يوم تكون الجبال كالعهن، ولتحاسبن على الذرة والبرة إن الله لا يظلم مثقال ذرة:

تنبه أيها المغرور واسأل ... إلهك مرة من بعد مره
وقف بالباب معتزلاً لتحظى ... من البر المهيمن بالبره
ولا تركز إلى الدنيا ففيها ... من الأحران ما يخفي المسره
ألا بعداً لها من دار قوم ... بها يرضون وهي لهم مضره
تعر من الذنوب، فعن قريب ... تحل من الممات بك المعره
وبالنزق إقتنع، فالحرص ذل ... وإياك الهوى وتوق شره
وحلو العيش لا تقربه واصبر ... وإن كانت حميا الصبر مره

يا أرباب الملابس الفاخرة، الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة. وما هذه الغفلة التي رانت على قلوبكم؟؟؟ ما هذا الطمع الذي ألحق بالعبيد أحراركم؟؟؟ أما آن لكم أن تسيوا؟ وتصغوا إلى داعي الفلاح وتجيوا؟ بلى والله آن، وظهر فجر الحق وبان، فاجنحوا إلى الطاعة، ولازموا أهل السنة والجماعة، واشتملوا على الخيرات قبل أن تمزقوا، " واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا " ، وأخلصوا في الأعمال، واقطعوا حبال الآمال، وتزودوا للرحيل عن الوطن، واجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحلوا بعقود المكارم، وتحلوا عن انتهاك المحارم، وجدوا كي تنالوا جد المجتهدين، " ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين " ، واعقلوا بالشكر شوارد النعم، وصونوا أعراضكم ببذل النعم، واتخذوا الصبر على البلوى عدة وجنة، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة:

أحسن بما من جنة عالية ... قطوفها للمجتني دانيه
آذان أهلها أولي العزم لا ... تسمع فيها أبداً لاغيه
وجوههم فيها ويا حسنهاناعمة مرضية راضيه
الحور والولدان من حولهم ... يسعون في روضاتها الزاهية
كم سرر للوفد مرفوعة ... فيها، وكم من أعين جاريه
مبثوثة فيها زرابيها ... موضوعة أكوابها الصافية
فاجتهدوا كي تدخلوها غداً ... يوم دخول الفرقة الناجية

إلام تهمتون في إدراك الغرض؟! وتذهبون جوهر نفوسكم في تحصيل الغرض؟! وتستبدلون الضلالة بالهدى؟! وترتدون بما يوقعكم في الردى. وتسمحون بشركم وتبخلون بخيركم؟! وتسوفون بالعمل كأن منفعته لغيركم؟! ألا حسنوا الصفات، لتكريم الذات. وأكثروا من ذكر هاذم اللذات واستيقظوا من سنة الفترة واقفوا النار ولو بشق تمرة، فأني بكم إذا أصبحتم أمواتاً؟! وعدتم بعد الرفاهية رفاتاً؟؟؟! ونقلتم إلى دار البلى، وأجيب السائل عن بقائكم بلا؟! وفجع بكم الأحباب، وغلقت دونكم الأبواب؟! وانقلبتم في قلب البرزخ، وأضحت عقودكم تحل وتفسخ؟! أم كيف بكم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور؟! ووقفتم للعرض على من ييده مقاليد الأمور؟! " فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ".
ثم إنه بسط للدعاء يديه، وأجرى سوابق دمه على خديه. فبكى القوم لبكائه، وأمنوا على صالح دعائه. فلما فرغ اقبل الناس إليه، وأكثروا من تعظيمه والثناء عليه. فمن لاثم راحته، وقاصد بالجوهر راحته، وملتمس بركة عنايته، وناطق بشكر نصحه وهدايته. وهو يروح أرواحهم المكروبة، ويسقي كل واحد منهم مشروبه. ثم ولى يتهادى بين صحابته، وانسجت عنا أذيال صحابته.
فمضيت قريير الناظر، منشرح للصدر وال خاطر، متعظاً بما استمعت من قول النصيح، مستنشقاً من عرف الشيخ عرف الشيخ، حامداً صحبة المشير الذي لم يزل من المحسنين، مصلياً على من أنزل عليه: " وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ".

هذا آخر ما نطق به لسان اليراع، وانتهى ما أورده نسيم الصبا من أحباره الطيبة على الأسماع. والله المسئول في غفر الذنوب وستر العوار، ومسامحة ذي اللعب والخوض، بوروده الخوض، يوم الأوار. وله الحمد على سابغ نعمه، وما من به من فيض فضله ودوام ديمه. والصلاة والسلام، على صاحب المقال والمقام، سيدنا محمد المؤيد باللسن والبراعة صلاةً وسلاماً دائمين إلى يوم الساعة آمين.